قلم الذكر ٢

التنادي

هُتافٌ إلى القرآنِ في زمنِ الهجرانِ

تأليف
توفيق بن خلف بن عبدالله الرفاعي

التنادي

هُتافٌ إلى القرآنِ في زمنِ الهجرانِ

تأليف
توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

دولة الكويت
« ٢٠٢١ م - ١٤٤٣ هـ »
الطبعة الثانية

مؤسسة سلسبيل الوقفية

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
69600444

مسموح بتداوله دون تعديلٍ أو تغييرٍ
في المادة العلمية للكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين، أما بعد:

فسبحان الله! كيف حُصِرتْ مهمةُ الصروح القرآنية ورجالها في التحفيظ المجرد للقرآن الكريم - وإنه لخيرٌ عظيمٌ - بينما تبقى عناصر التربية القرآنية وتلقِّي الأجيال من كتاب الله تعالى رهن فهم المُحفِّظ والمُعلِّم؟

لَمْ أرغبْ أنْ أجعلَ لي تعليماتٍ جديدةً في هذا المجال، لكنني أحببتُ أن أجعل مُحفِّظَ القرآن، وطالبَ حفظهِ، والقائمَ على مناهجه كتابةً وإشرافًا، ومن يسلك في هذا السلك الكريم يتلقَّى هذا العلم والإيمان من رسول الله ﷺ مباشرةً.

وأي مقام أعلى من المقام الذي يتلقى فيه التابع البعيد من رسوله الله ﷺ مباشرةً، وكأنه يراه ويسمعه، فترتقي نفسه لتعيش ما عاشه الصحابة - رضي الله عنهم-، وتتربَّى على ما تَربَّوا؟!

نعم. إن هذا الأمر على حقيقته محالٌ، ولذا قلنا «كأنك» وهي منزلة الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ عندما سأله جبريل عن الإحسان فأجاب: (أن تعبد الله كأنك تراه)، فكيف لا نسعى لها مع أحب خلق الله إلينا؟! سيجد القارئ محاولة هذه المعايشة - بإذن الله - من أول كلمة في شرح الحديث عند (مفتاح الفهم والمعايشة)، فليست السُّنَّةُ محفوظاتٍ وقراطيسَ وأقلاماً، من غير معايشة قلوبٍ وأرواحٍ وأفهامٍ، فإن الحفظ والقرطاس والقلم وسيلة، والفهم والمعايشة غاية، ولو كانت غاية مرحلية.. من غير استنقاصٍ من قيمة الوسيلة..

ولقد أحببت أن تعود حياة القرآن لأهله، وتظهر صبغة القرآن على حَملَتِه، وتفيض بركة القرآن ودعوته على رجاله بزينته، ويتوهَّج حَمَلته من بين الناس بنوره، وبطيب رائحته.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأحاديث تم اختيارها من مجموعة كبيرة تضمنها كتاب (صحيح أحاديث القرآن الكريم) لمؤلفه الشيخ مؤيد عبدالفتاح حمدان، وتم التعليق عليها واستخلاص المعاني والتنادي منها بما فتح الله علينا، وبما ساق من آلائه إلينا، فالحمد لله أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا ..

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..،

المؤلف ،،

تعريف بمصطلحات الكتاب

❁ المصطلح الأول: مفتاح الفهم والمعايشة

كلماتٌ نذكرها بعد ذكر نص الحديث مباشرة، تتعلَّق بالظرف الزماني أو المكاني الذي قيل فيه الحديث، وغالبًا ما تكون مأخوذةً من نص الحديث للإعانة – بإذن الله – على إعطاء القارئ بُعْدًا جديدًا في الفهم والمعايشة.. فهي ليست مشاعر وجدانيَّةً ولا فهمًا مجردًا... إنما هي جامعة للفهم والمشاعر والمعايشة، باعثة لها، ولذا سَمَّيناها مفتاح الفهم والمعايشة.

فهي محاولة لنقل القارئ من الفهم المجرد للكلمات والمعاني إلى المعايشة الوجدانية والتَّصوريَّة، سعياً إلى تغيير واقعنا، إلى واقع أفضلَ وأقومَ، فالتغييرُ مطلوبٌ، وهو لا ينبع من مجرد القراءة أو العلم.. إذ لا بد من أن يتغلغلَ معنى الحديثِ ورُوحُه إلى شعاب العقل والروح والنفس الإنسانية، فثمة التغيير الفردي والجماعي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١ وقد جعلناها بعد نص الحديث مباشرةً ليعيدَ القارئُ قراءةَ الحديثِ بعد قراءتها؛ لأن هذا التأثير سيعرف أهميتها أكثر عند القراءة – بإذن الله –..

وأرجو أن تجتمع تحت هذا المفتاح كنوز مكنونة، تستخرج من خزائن السنة، عن طريق علمائها، رحمهم الله تعالى.

❁ المصطلح الثاني: فرائد المعاني

وأوليت عناية خاصة بما رأيتُه من جديد المعاني المستخرجة من ألفاظ الحديث نفسه أو مما يقتضيه الحديث، وقد يكون المعنى جديداً لم يذكره الشراح، أو ذكروه

لكنهم لم ينزلوه التنزيل المباشر على الواقع، فعملت على تقريب العمل بالحديث وتفعيله، وشق طرقٍ جديدةٍ حية واقعية، ليأخذ الحديث دوره في تجديد الحياة وإحياء مبادئها، وهل المقصود من العلم إلا الإحياء والتزكية والعمل..؟! ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ آل عمران: ١٦٤.

ولقد فصلتُ في استخراج المعاني في أكثر الكتاب، وخصوصًا في الجزء الأول منه، وأما في بقية الأجزاء فلجأت لمنهج الاختصار في أغلب أحاديثه، رجاء أن يكون القارىء تدرب التدريب الكافي على استخراج المعاني بنفسه، فليست غايتي أن أُلقن القارئ المعاني، إنما أحببت أن أنقله إلى مرحلة العطاء من خلال التأمل في هذا الكتاب، وسيرى القارئ أن ذلك ممكن جدًّا – بإذن الله – .

❁ المصطلح الثالث: الشاهد

ولئلا يظن بعض القراء ممن لم يتأمَّل جيدًا المعاني المذكورة أنها مجرد تعبيرات أدبية متكررة، وأنه لا أصل لها من الحديث وذلك لخفاء مأخذها،، فقد ذكرت عند كل معنى من المعاني ما يشهد للمعنى من الحديث نفسه، ونحن حين نذكر أنَّ لكلامنا شاهدًا من القرآن والسُّنَّة فذلك شرفٌ لنا، وكلامنا بغيرهما لا قيمةَ له، كما أنه ضابطٌ لعدم تجاوز الأفهام والعواطف على معاني الوحي، ولئلا يسترسل آخرون على السُّنَّة بحجة استخراج المعاني، فمن كان عنده شاهد فليفعل وإلا فلا.. وسميته الشاهد، وعادةً ما يكون الشاهدُ كلمةً واحدةً من الحديث، ﴿ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

❁ المصطلح الرابع: التنادي

هُتافٌ خفيٌّ من الحديث النبوي: أنْ «يا أهلَ القرآن» عودوا للقرآن، وأَعِيدُوا الناس إلى القرآن، وجددوا الحياةَ بالقرآن، وأحيوا ما قُبِر من أمل الأمة بالقرآن..

التنادي: رُوحٌ تسري من قول رسول الله ﷺ إلى أرواح أهل القرآن وحياتهم فتبعثها من جديدٍ..

التنادي: كلمة العودة إلى الحياة في هذه الأمة إذا ذهبت عنها الحياة، وكلمة النصر إذا ولَّى النصر وحَلَّت الهزيمة، وكلمة الكرِّ إذا حلَّ بالناس الفرار..

هكذا كانت هذه الكلمة في تاريخ الإسلام والمسلمين..

فلمَ لا ترجعُ كما كانت، فلعل الحياة برجوعها ترجع إلينا..؟!

فلقد كانت هي الكلمة التي أعادت الفَارِّين إلى رسول الله ﷺ في غزوة حنين..

فعن الزُّهريِّ، قال: حدَّثني كَثيرُ بنُ العبَّاس، عن أبيه العبَّاس، قال: كان النَّبيُّ ﷺ على بغلته الشَّهباء يوم حنينٍ، فكنت أنا من جانبٍ، وأبو سفيان بن الحارث من الجانب الآخر، آخذًا بلجامها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «يا عبَّاسُ، نادِ النَّاسَ بأصحاب السَّمُرة، فناداهم العبَّاس وكان رجلا صيِّتاً، فلمَّا ناداهم كأنَّما كانوا البَقَرَ عَطَفَتْ على أولادها، ثمَّ ارتفع الصَّوت: يا معشرَ الأنصار، ثمَّ خلصت الدَّعوة، يا بني الحارث بن الخزرج، فقال: يا أصحابَ سورةِ البقرة»[1] فلمَ لا يرجع «التنادي»، يا أهل القرآن .. فهو نداء العودة المجرب..؟!

❁ ❁ ❁

(١) مسند البزار ١٣٠١.

أَحَادِيثُ

التَّنَادِي

الحديث الأول

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ الله فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، [مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَى الهُدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ]، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ الله وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»(١).

وفي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُما أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا»(٢).

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم ٢٤٠٨.
(٢) رواه الترمذي ٣٧٨٨ وصححه الألباني رحمه الله.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

كَمْ مِنْ حزن عميق يحمله لنا قول النبي ﷺ: «أنا تارك فيكم»؟! أليس هذا هو التذكير بموته ﷺ؟ وهل من مصيبةٍ أعظم من مصيبة موته ﷺ؟ فماذا أنتم صانعون بتركتي من بعد موتي يا أمتي؟

أيتها الأجيال المنتسبة إليَّ.. يا من تَتطلَّبون أيَّ شيء يمثل شكرًا تُوصلونه إليَّ.. هذه تَرِكتي أُعْلِنها لكم.. فاصنعوا بها ما بدا لكم... وعند الحوض يجتمع الأوفياء.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: الرابط ما بين الحبلين القرآن والعِتْرة.

الشاهد: «كتاب الله وعترتي».

لا شك أن قيمة كل نسبٍ بما ينتهي إليه ذلك النسب.. فمنتهى العترة هو الرسول ﷺ وهو ذروة الشرف في بني آدم على الإطلاق، فالعترةُ مخلوقةٌ، انتهى نسبها لأشرف مخلوقٍ، أما منتهى نسبة القرآن فإنه الله سبحانه وتعالى خالق الخلق، فالاشتراك بينهما بمقدار الحق المترتب على الأمة نحوهما، وليس المقصودُ توحُّدَ قيمتِهما أو تساويهما - عياذًا بالله من ذلك -.. فلا مقاربةَ لشيءٍ في الوجود مع القرآن.

ومَن تأمَّلَ أكثر وجد أن قول النبي ﷺ عن القرآن بأنه حبلٌ ممدودٌ مناسبٌ تمام المناسبة، فالحبل هو سبب الوصل بين شيئين، فالنسب هو الحبل الموصل بين الناس وبين أهله من بعده، وهم العترة، والقرآن هو الحبل الموصل بين الله وبين خَلْقه، فكأنه يقول: حبل العترة منتهٍ إليَّ، فهو من الأرض إلى الأرض، والقرآن من الله إلى الأرض، ولذا قال ﷺ بعدما أشار لهما: «أحدهما أعظم من الآخر» وهذه الكلمة تقطع كل سوء فهم أو سوء استغلال لهذه الكلمة.

ولكلٍّ واحدٍ منهما حقُّه، للقرآن حقُّه وللعترة حقها، فالعترة حق الرسول ﷺ، والقرآن حق الله تعالى، وكلاهما حق الله والرسول ﷺ، ولا تعارض في ذلك، فالأمران من الشهادتين ومن حقهما. ولذلك كانت مناشدة النبي ﷺ بقوله: «فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، ثم تسمية النبي ﷺ لهما بالثقلين لثقلهما كما قال العلماء، فالمقصود حقهما وليس شيءٌ آخر.

ولا يستطيع أحد أن يقول إن العترة بدل السُّنَّة، فهذا الأمر غير متصوَّرٍ إطلاقًا، إذ كيف يتصور وضع العترة بدل السُّنَّة أو السُّنَّة بدل العترة، فإنَّه يشترط في البديل أن يكون عِوضًا عن المبدَل منه.. فالسنة بمنزلة الشرح والبيان للقرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة النحل: ٤٤).

بل إن الوصية بالعترة جزءٌ من السُّنَّة، ولولا الوصية بها في السنة لما أصبح حقها من السُّنَّة، نعم سيبقى حقها من باب النخوة، ويكون من باب العرفان ورد الجميل، فذلك أمرٌ مطلوبٌ، أما أن يتحوَّل حق العترة إلى تشريعٍ فقد كان ذلك بالسُّنَّة، ومنه هذا الحديث، وهو جزء من السُّنَّة العظيمة، ولذا كان اصطناع تضاد بين السنة والعترة إنما هو من منهجية اليهود القائمة على قاعدة التفريق، التفريق بين الله ورسوله، والتفريق بين الرسل بعضهم بعضًا، والتفريق بين الأمم، والتفريق بين المنهج الواحد كتفريقهم بين جبريل والملائكة، فهل تُنْسَفُ السُّنَّة لجزءٍ منها، اللهم إلا عند من يحرص على الطعن في السُّنة ونسفها بأي شبهةٍ محتملةٍ لأي متشابهٍ، تزيغ عنده قلوب أهل الزيغ، وإن كان ليس بمتشابهٍ في حقيقة الأمر، مثل مَنْ يطعن في الصحابة، وليس ذلك إلا وسيلةً لنسف السُّنة من خلال التشكيك في مصداقية مَنْ حملها، وهو طعنٌ في القرآن؛ لأنَّ حَمَلَةَ القرآنِ والسُّنةِ عن رسول الله ﷺ هم الصَّحابةُ ليس إلَّا..

المعنى الثاني: دليل بقاء العترة إلى أبد الدهر.

الشاهد: «ولن يتفرقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض».

وهنا أمران مهمان في بقاء العترة وأهميتها: أما الأول: فهو شكر رسول الله ﷺ وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الشورى: ٢٣

فلولا أن العترة باقية ما بقيت وصيته لأمته إلى يوم القيامة..؟!

فإنَّ كل واحدٍ من أبناء الأُمَّة يتمنَّى شكر رسول الله ﷺ وأداء ذلك الحق له.. هنا يجعل النبي ﷺ مُتَنَفَّسًا لهذا الشكر، فمن أدَّى حق آل بيته فكأنما شكر رسول الله ﷺ.. ولولا بقاؤهم لانقطعت هذه الصورة من شكره ﷺ.. كما تدلُّ على أن هذا النسب لن يفنى ولن يذوب في الأنساب وإن دخله البعض زورًا وبهتانًا.. وأن هذه الشجرة لن تُجْتَثَّ..

ثمَّ إنَّ ربطَ العترة بالقرآن دليلٌ على بقاء الحفظ، فمن ذا الذي يربطه الله سبحانه بالقرآن ويستطيع أحدٌ أن يفك ذلك الارتباط..؟!

إن تفريط الأمة بحق العترة تفريطٌ في حق رسول الله ﷺ.. وأي تفريطٍ أعظم من ذلك..؟! لابد للأمة والمسئولين فيها على وجه الخصوص أن يُشرِّعوا تشريعاتٍ خاصةً تحمي حقوق آل بيت النبي ﷺ، وتُغنيهم عن الناس، وتجعل أيديَهم العليا، تشريعاتٍ فيها إكرامهم وإعلاؤهم.. وليعزِّفوا ذلك، وليعلموا أن هذا الإكرام والإعلاء على عامة الناس إنما هو النبع الذي صدروا عنه، وأصل الشجرة الذي خرجوا منه، والثمرة التي بذروا مِن حَبِّها، وحَبِّ حَبِّها..

وإنَّ من الحكم العظيمة للوصية بالعترة هو حفظ المجتمع بِرُمَّته من الإسفاف، وتعويد المجتمع كله الوفاء، وحفظ العهود، فأيُّ قيمةٍ لعهود تبقى لَمْ تحفظْ رسولَ الله ﷺ في أهل بيته؟!

ولأي العوائل ستبقى حرمة إذا أُهينت عائلةُ رسول الله ﷺ؟

فإن المجتمع إذا عرف أن شبابًا من نسل رسول الله ﷺ قد انحرفوا مثلًا، فسيكونون أحرص ما يكونون على إصلاحهم وإرجاعهم إلى الحق؛ لأن الانحراف لا يليق بعامَّة الناس، فكيف يليق بهم وهم الأشرفُ والأكملُ وأهلُ السُّؤْدَدِ والأطهر؟! ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣)، وما من تشريعات لإغناء هذه الأسرة وإعلائها وتطهيرها وتذكيرها إلا من تحقيق مراد الله تعالى كما في الآية ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾.

فالذي يمنع الإنسان من الانحراف - عادةً - أحد أمرين: إما الدِّينُ وحُرمتُه، أو النَّسبُ وسُمعتُه، فمن لم يمنعه دينُهُ منعه نسبُهُ، فما بالك إذا وجدت أن مِنْ آل رسول الله ﷺ مَنِ انحطَّ خُلُقه.. إنَّ ذلك سيكون عدوانًا عظيمًا على هذا النسب العظيم، وعدوانًا على بقية الأنساب، فلا يصبح لنسبٍ حرمةٌ، ولا يمنع نسب صاحبه من إسفافٍ أو حرامٍ، لذلك فحفظُ هذا النسب حفظٌ للقيم الخُلُقيَّة..

وأما الأمر الثاني: فإن الأمة إذا بلغت مرحلة أسفل سافلين، وهي أشبه ما تكون في حكم الطب ميتة موتًا سريريًا فإن إنقاذها إنما يكون عن طريق آل محمد ﷺ، ولَمْ يثبتْ على الإطلاق أيُّ إنقاذٍ لها قبل قيام الساعة إلا بهذه الأسرة وبالمهدي عليه السلام تحديدًا، وهو من يحقق الله به كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن ذلك قوله العزيز: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾، وقول النبي ﷺ: "لَيَبلُغَنَّ هذا الدين ما بَلَغَ الليل والنهار[1] ..." ، وبشارته ﷺ: "فتنعم أمتي في عهده نعمة لم تنعمها قط"[2]، وبشارته بقوله ﷺ: ".. يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا"، وبشائر النبي ﷺ كثيرة، ويكفي أن يقول النبي ﷺ قولًا ما قاله عن نهاية الدنيا التي فيها أجل

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٦٩٩٨) بلفظ: (ليبلغن هذا الأمر)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٤) رجاله رجال الصحيح.
(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٥٢) بإسناد ضعيف.

الآجال التي لا تؤخر ولا تقدم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لو لم يبقَ منَ الدُّنيا إلَّا يومٌ لطوَّلَ اللَّهُ ذلِكَ اليومَ حتَّى يَبعثَ فيهِ رجلًا منِّي – أو من أَهْلِ بيتي – يواطئُ اسمُهُ اسمي ، واسمُ أبيهِ اسمُ أبي يملأُ الأرضَ قِسطًا وعدلًا ، كما ملئت ظُلمًا وجَورًا . وفي لفظٍ لا تذهبُ – أو لا تَنقضي – الدُّنيا حتَّى يملِكَ العربَ رجلٌ من أَهْلِ بيتي ، يواطئُ اسمُهُ اسمي".[1]

لذا فإنه إذا ما بُعِثَ تقطعت كل بيعة ولزمت بيعته وحده وذلك بأمر صاحب الأمر الحق وهو رسول الله ﷺ الذي قال: "... فبايعوه أو فاخرجوا له ولو حبوًا على الثلج".[2]

فإذا رجعنا إلى حديث الباب وجدنا أن السر الأكبر في الوصية بآل البيت هو الوصية بالمهدي وبيعته، لأنه إذا ما جاء أقام القرآن في العالمين أجمعين، وإلا كيف يملؤها قسطًا وعدلًا إلا بكتاب الله وحكمه وحكم رسول الله ﷺ ومن ثم فإنه إذا ما جاء لم يفترقا هو وكتاب الله إلى قيام الساعة، ومن ثم فإن حكم عيسى عليه السلام إنما هو كمال لمسيرته ونشر للسلام بعد ما فتح المهدي العالم كله.

المعنى الثالث: فالسؤال المتبادر هنا لماذا الحوض تحديدًا؟

الشاهد: «حتى يردا عليّ الحوض».

أقول – والله أعلم –:

أ: بما أن نسب رسول الله ﷺ الخاص هو أخص شيءٍ به ﷺ فقد كان جزاؤه من ملكية رسول الله ﷺ، وملكيتُهُ للحوض حاصلةٌ بتمليك الله له دون غيره من عموم أهل الجنة.

ب: أن الحوض هو أول مواطن التكريم على يد رسول الله ﷺ في أرض المحشر، فناسب ذلك التعجيل في إكرام مَنْ أكرمَ عترةَ رسول الله ﷺ، ومن كُرِّم عند الحوض حريٌّ به أن تعظم كرامته في الجنة؛ لأنَّ الحوض بالنسبة للجنة كموضع الاستقبال بالنسبة لمكان الضيافة الأساس..

(١) رواه وابو داود (٤٢٨٢)، والترمزي (٢٢٣١).
(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٤٠٨٤).

❁ ثالثاً: التنادي:

إن التنكُّر لآل بيت النبي ﷺ أعظم من التنكُّر لأبناء أي أسرةٍ من الأُسَر حاكمة أو غير حاكمة.

فيا وُلَاةَ أمرِ المسلمين، هذه ذريَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ في بلادكم، بين أيديكم وقتَ حُكْمكم، شرفكم أن تخدموهم وأن تنزلوا لهم عن كراسيكم إذا دخلوا، وتفتحوا لهم بيت المال قبل أن يطلبوا، وتُرفِّعوهم عن الاحتياج إلى غيركم، فأنتم وذراريكم أصحاب المكسب الكبير بهذا ..

وهذه ذريَّة رسول الله ﷺ ... مُتولِّيها والمتكفِّل بها هو الله تعالى..

فَرِّط في نفسك ولا تُفرِّط في حق رسول الله ﷺ...

فَرِّط في ذريتك ولا تُفرِّط في حق ذريَّة رسول الله ﷺ..

فهي عنوان حفظك وحفظ ذريتك، وعنوان بقائك وبقاء ذريتك، وهي عنوان لقائك برسول الله ﷺ.. فقَدِّمِ الثمن لتلك الشَّرْبَةِ..

الحديث الثاني

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «ضَرَبَ الله مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَرَّجُوا وفي رواية: لا تَعْوَجُّوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ الله، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ الله، وَذلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ الله، وَالدَّاعِي من فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[1].

(١) رواه أحمد ٤/ ١٨٢، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح. وصححه الألباني في ظلال الجنة ١٩.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

أي أمــرٍ يضرب الله ســبحانه وتعالــى له المثــل إلا أن يكون أمــرًا عظيمًا وبيانه مهمًا ودقيقًا؟!

وهل من غموضٍ لشيءٍ بعدما يضرب الله له المثل؟

إنه الأمر العظيم.. إنه الصراط المستقيم وما عليه وما حوله..

فيا لَه من مثلٍ شاملٍ.. ما ترك الله سبحانه فيه من شيءٍ إلا بَيَّنه وجَلَّاه، فلَمْ يَعُدْ بعدُ هذا المثلُ شيئاً خافياً ولا حجةً غامضة..

فلنتذكر: أنه ليس مثلًا من الأمثال السارية.. أو مثلًا في كتب الأمثال العربية أو الشعبية، إنه مثل يضربه رب العالمين..! إنه الحقيقة بعينها.. إنه مثل الحياة التي تعيشها.. والصراط الذي نسلكه في هذه الحياة.. إنه ما نجده في تفاصيل الحياة اليومية على وجه الحقيقة وليس على ظاهر الحياة الدنيوية.. إنه مثل الله الذي ما ترك فيه أمرًا ظاهرًا ولا باطنًا إلا بيَّنه بأبلغ بيانٍ.

حقًّا إنه مثلٌ، ولكنه الحجة البالغة لله على عباده، فما بقي بعده لعبدٍ لا يسلك الصراط المستقيم من حُجَّةٍ.

إنما ضرب المثل بذلك زيادةً في التوضيح والتقريب، ليصير المعقول محسوسًا، والمتخيَّل متحقَّقًا، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل، ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهد، ليساعد فيه الوهم العقل، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل، مع منازعة الوهم؛ لأن طبعه الميل إلى الحسِّ وحبِّ المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، وفَشَتْ في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء، فلنقرأ هذا المثل من جديدٍ؛ لأنه مثل الله سبحانه وتعالى؛ لنا نحن؛ لأنه حياتنا؛ ولأنه مصيرنا.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: لا تَعَرُّجَ في الصراط إنما التعرجُ في السالكين.

الشاهد: «صراطًا مستقيمًا».

الله سبحانه يصف صراطه بأنه مستقيمٌ، فيقول سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٦).

ويصفه سبحانه بأنه لا عوج فيه، فيقول سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ (سورة الكهف: ١).

ولكنه سبحانه في هذا المثل ينهى عن التعرُّج في الصراط، ولولا أن التعرُّج مع سلوك هذا الصراط أمرٌ ممكن الوقوع لما نهى عنه الله تعالى، إذًا، فالتعرُّج أمرٌ ممكن الوقوع، وهو وصفٌ للسَّالك لا للطريق المستقيم..

وليس هذا التعرُّجُ المنهيُّ عنه أمراً نظرياً، بل هو تعرج فعلي ويشمل كل طريق مستقيم، فالتعرُّج يكون بالقول كالتعرُّج بمجانبة الصِّدق، أو شهادة الزُّور أو كتمان الشهادة أو ليِّ اللسان بها، ويكون بالسكوت عن الحق، أو قول النفاق والباطل، ونحو ذلك، ويكون بالوقوع في ذنوب اللسان، كما يكون التعرُّج بعدم الاستقامة في نظر العين، والأذن، وهكذا يكون التعرُّج بعدم استقامة الجوارح، والتعرُّج الأكبر هو ما يكون في المعتقَد والتصور، وذلك بالابتداع في المعتقد أو في العبادة، ودخول الصراط لا يعني ضمان الاستقامة عليه، بل إن الحاجة إلى الاستقامة بعد دخول الصراط ضروريَّةٌ، والوصية بها واجبةٌ،كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سورة هود: ١١٢). وفي الحديث أوصى النبي صاحبه فقال له: قل آمنتُ بالله ثم استقم[1]. ولذا جاء في الحديث نفسه:

(١) رواه مسلم ٣٨.

«وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه».. بل هو أعظم الضرورات ولذا جاء الطلب الدائم به في الصلاة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

المعنى الثاني: لا مجازفة بالدين.

الشاهد: «ويحك لا تفتحه».

قال الطَّيْبِيُّ: ونظير هذا حديث: «ألا إن لكل مَلِكٍ حِمى، ألا وإن حمى الله في الأرض محارمُه، فَمَن رَتَعَ حولَ الحِمى يوشكُ أن يقعَ فيه»[1] فالسُّتور بمنزلة الحمى، وما حولها بمنزلة الباب، والسُّتور حدود الله، وهي الحد الفاصل بين العبد ومحارم الله، وواعظ الله هو لَـمَّة المَلَك في قلب المؤمن، والأخرى لَـمَّة الشيطان، وإنما جعل لمة الملَك التي هي واعظ الله فوق داعي القرآن؛ لأنه إنما ينتفع به إذا كان المحلُّ قابلًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾.

قال النووي: سرُّ هذا الحديث أنه أقام الصراط معنى للإسلام، وأقام الداعي معنى للكتاب، والداعي الآخر معنى للعظة في قلب كل مؤمن، فأنت على الصراط الدائم وهو الإسلام، وسامع النداء القائم وهو القرآن، فإن أنت أقمت حركاتك وسكناتك في رضا مدبرك وخالقك، وأسقطت مَنْ سواه، أقامك إليه، فحينئذٍ يكشف لك اسمه الأعظم، الذي لا يخيب مَنْ قصده به.

وهذا يدلُّ على أن الفضول في النفس البشرية متأصلٌ، وأنَّ هذا الفضولَ يمكن أن يوصله إلى الهلاك، وأنَّ العلاج ليس بترك فعل الحرام فحسب، بل العلاج أساسًا بعدم الاقتراب من أسباب الحرام وعدم فتح أبوابه.. ولذا فإنَّ هذا المنادي ينادي بالجزم بالوقوع عند فتح الباب «فإنك إن تفتحه تلجه».

(١) البخاري ٥٢ ومسلم ١٥٩٩.

لن تستطيع أن تفتح الباب وتتركه أو تلتزم الحياد، أو تتوقَّف عن الدخول، فأيُّ مجازفةٍ بالمصير أخطر من أن تفتح تلك الأبواب، وهذا ما جاء نصًّا في آيات كثيرة تدلُّ على وجوب قطع أسباب الحرام وعدم المجازفة بها، ففي المعتقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٨).

فلما أفضى فتح باب السِّباب مع هؤلاء إلى سبِّ الله تعالى أغلق الله هذا الباب من أصله حمايةً لأعظم حرمةٍ.

ومثالها في الأعمال قوله سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (سورة النساء: ١٤٠)

فحرم القعود معهم لما يفضي إلى المشاركة بالحرام أو الرضا به أو توهم التأييد له فأغلق هذا الباب من أصله.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢).

وفارق بين لا تزنوا وبين ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾.

وصاحب القرآن هو أعظم الناس بصيرةً بتلك الأبواب وخطورة فتحها ووجوب تركها على ما هي عليه، فهذا الحديث يدل بوضوحٍ على أن الأصل في المحرمات هو الإغلاق، وأن الإنسان ما لم يتقدم لها بنفسه ويستجيب لداعيها فإنه - بإذن الله - لن يفعلها، وهذا من فضل الله تعالى على المؤمنين حيث لم يجعل للمحرمات ودعاتها عليهم سلطاناً، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (سورة الإسراء: ٦٥).

المعنى الثالث: أهمية الاستقامة.

الشاهد: «ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَرَّجُوا».

لو كانت ثَمَّة أُمنيَّة أعز، وغاية أثمن، والخوف عليها أعظم من الاستقامة على الصراط لما جعلها الله تعالى الدعوة الدائمة كلما وقفنا بين يديه في الصلاة، فقال سبحانه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

وقد سبقها كل ما يهيئ لإجابتها، فقال سبحانه: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ (سورة الفاتحة).

عن سفيانَ بن عبدِاللهِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قل لي في الإسلام قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بعدَك. قال: «قل آمنتُ بالله ثم استقِمْ»(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنه: أن معاذَ بنَ جبلٍ رضي الله عنه أراد سفرًا، فقال: يا رسول الله، أوصني. قال: «اعبدِ اللهَ ولا تشركْ به شيئًا» قال: يا رسول الله، زدني. قال: «إذا أسأتَ فأحسِنْ» قال: يا رسول الله، زدني. قال: «اسْتَقِمْ ولْتُحْسِنَ خُلُقَكَ»(٢).

وعن سفيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، حدثني بأمرٍ أعتصمُ به، قال: «قل ربيَ اللهُ ثم استقم» قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ ؟ قال: فَأَخَذَ بلسان نفسه ثم قال: «هذا»(٣)

وعن حُذَيفةَ بنِ اليمانِ رضي الله عنه قال: «يا معشرَ القراء، استقيموا فقد سبقتم(٤) سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»(٥)..

(١) رواه مسلم برقم ٣٨.
(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» برقم ١٧٩ وقال الذهبي: صحيح الإسناد.
(٣) الترمذي٢٣٣٤ – مسند أحمد١٤٨٧١ والحاكم في المستدرك ٧٨٧٤ وصححه الذهبي
(٤) قوله «سَبقتم» ضُبط بفتح السين، والمعنى: إن استقمتم سبقتم غيركم سبقاً ظاهرًا إلى كل خير، وضبطه بعضهم بضم السين «سُبقتم» أي سبقكم السلف سبقًا متمكنًا فلعلكم تلحقون بهم .. فتح الباري (١٣/ ٢٥٠)
(٥) رواه البخاري في الصحيح برقم ٦٨٥٣

❁ ثالثاً : التنادي:

لا تَضِيقَنَّ ذَرْعًا بكثرة المغرِيات لك يا صاحبَ القرآن، فإنك إذا تأملتَ المثل الذي ضربه الله تعالى للصراط المستقيم وجدت أنَّ كل ما ذكر من مخاطر حول ذاك الصراط إنَّما هي المحرمات، وأن ذاك الصراط هو الصراط المستقيم، ولولا أنه مستقيم لما اجتمعت حول أهله المستقيمين عليه كل هذه المحرمات والأبواب، وما خلفها من محرماتٍ، وهذا من تصديق قول الله تعالى عن الشيطان الرجيم: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٦).

أيا ابنَ القرآن: إياك أن تتهاونَ في الاقتراب من الحرام.. لا أقول لك: لا تفتح الأبواب فحسب، بل أقول لك: إياك أن تقترب من السُّتور، فليس أمر الحرام واضحًا تمام الوضوح حتى تستبينه من أول الأمر، ولذا جعل في المثل قبل الأبواب المفضية ستوراً مرخاةً، لتخفي الأبواب.. فلا يدفعك إرخاء الستور إلى السدور، أو الاستهانة في كشفها، فالستور أولًا والأبواب ثانيًا، وما بعد الأبواب إلا اقتحام النار - والعياذ بالله-.

الحديث الثالث

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرِنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَخَيْرَ الْهُدَى هُدَى[1] مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[2].

وفي رِوَايةٍ: «إِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله»[3].

وفي رِوَايةٍ: «أَحْسَنُ الكَلَامِ كَلَامُ الله»[4].

وفي رِوَايةٍ: «إِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله»[5].

وفي رِوَايةٍ: «فَإِنَّ خَيْرَ الأُمُورِ كِتَابُ الله»[6].

---

(١) قوله (الهُدَى) ضبط بضم الهاء وفتح الدال في الموضعين، ومعناه: الدلالة والإرشاد، وكذا ضبط بفتح الهاء وإسكان الدال (الهَدْي) في الموضعين، ومعناه: السمت والطريقة والسيرة، أي خير السيرة والطريقة سيرة محمدٍ وطريقته .. قيض القدير (٢/ ٢١٨).

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» ٨٦٧.

(٣) رواها أحمد ٣/ ٣١٩ قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) رواها النسائي ١٣١١ وصححها الألباني رحمه الله.

(٥) رواها النسائي ١٥٧٨، وصححها الألباني رحمه الله.

(٦) رواها ابن ماجه ٤٥، وصححها الألباني رحمه الله.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

فلنستحضر أننا نتلقى هذا الحديث ممن رأت عيناه وسمعت أذناه رسولَ اللهِ ﷺ وهو يخطب.. فهو يصف ما شاهده على رسول الله ﷺ من تغير حاله.. وتحول مظهره، وعلو نبرته إذا خطب.

تأمَّل حال رسول الله ﷺ... كيف كان بين صَحْبه في حياته وهو الرحمة المهداة.. وهو الحيِيُّ الرفيقُ، ثم تأمل حاله هنا.

إنه ليس مظهرًا تمثيليًّا.. ولا أسلوبًا تأثيريًّا مجردًا..

إن هذا الذي رأيت إنما هو من الرحمة، كيف وهو الرحمة المهداة.. فلشدة إحساس المنقذ المنذر بالخطر يصيح بأعلى صوته، ويظهر عليه الإشفاق باحمرار عينه، واشتداد غضبه، وارتفاع صوته.

وهل من موضوعٍ أخطرَ وأمرَّ من موضوع الساعة؟!

وهذا ما قرَّب الخطر في تصور الصحابة رضي الله عنهم، وقرب الساعة كما هي قريبة في تصور النبي ﷺ، وهكذا الصدق إذا فاض من القلب على المظهر وخالط الكلمة... بلغ القلب الآخر وطبع تصوره، وأي شيءٍ أقرب من أن يقول جابر: كأنه منذر جيش يقول: «صَبَّحكم وَمسَّاكم».

أَعِدْ قراءةَ الحديثِ: فإنّ صِدقَ وصفِ الصحابي لحال النبي ﷺ كفيلٌ أن يوصل إلى قلوبنا ما يوصل، فلعله يطبعها ببعض ما انطبع به قلب من حضر.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: مجمع الخير في الكتاب والسُنّة.

الشاهد: «فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ».

وصف القرآن الدائم على لسان رسول الله ﷺ وفي بداية كل خطبة هو أنه خير

الحديث وهذه الخيرية مطلقة في كل ما أنزل الله فيه القرآن، وهذا هو المناسب لهذه الأمة التي جمع الله لها الخير كله من كل أطرافه، فخيرية هذه الأمة في كل شيءٍ، وهو أمرٌ يصعب حصره في هذه النقطة، وذلك يدخل في خصائص رسول الله ﷺ وفي خصائص هذه الأمة.

لكن العجيب أن مجمع الخير للأمة كلها هو من القرآن والسُّنَّة وهو ما جاء جمعهما في أول خطبة الحاجة بقوله ﷺ: «فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ».

المعنى الثاني: وصف القرآن بـ «الحديث».

الشاهد: «فإن خير الحديث».

الشرف الذي تحوزه أمةٌ بأن يُنزل اللهُ عليها حديثه شرفٌ لا يُدانى، والشرف الذي تحوزه الأمة إذا أنزل الله عليها خير حديثه - وكل أحاديثه خير - فهذه هي ذروة الذرى في سماء الشرف بين الأمم، وهذا ما حازته هذه الأمة وكل فرد فيها على وجه الخصوص؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ (سورة الزمر: ٢٣).

وقوله مخاطبًا هذه الأمة: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٥٥).

وما كان هذا الحديثُ خيرَ حديثٍ لو كان حديثًا سلبيًّا أو معيباً، ولكنه جاء حديثًا جميلًا في عباراته، محكمًا في كلماته، متميزًا في إيقاعه ووقْعه على القلوب... فكل ما يذكره بعض العلماء عن وصف القرآن من هذه الصفات ونحوها.. إنما هي أوصافٌ عظيمةٌ، لكنها لا تتعدى إلى الحقيقة العظمى التي جعلها الله في كلامه سبحانه، تلك

الحقيقة هي بعث الحياة في قلوب قارئيه وفي واقعهم، وفي الأمة التي أنزل عليها والأمم التي ترتضيه إلى يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام: ١٢٢، ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إبراهيم: ١.

فوصْفُ القرآنِ بأنه «حديث» من أدق الأوصاف وأشملها لمجموع المعاني التي تحتويها صفاته، فهو حديثٌ؛ لأنه حديث الله وكلامه، كما في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ١٨٥، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ النجم: ٥٩..

وهو حديثٌ؛ لأنه محدث من الله ينزل شيئًا فشيئًا، كما ذكر ذلك صاحب «فيض القدير» وغيره..

وقد بين ابن منظور[1] أن ذلك من معانيها بل هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ الشعراء: ٥، وعلى هذا المعنى فإنك إذا قرأته وجدته كأنه أنزل اللحظة فلا يَخْلُق على كثرة التَّرداد، ولا يُملُّ بكثرة التَّكرار..

وحديث؛ لأنه يحدث أعظم التغييرات في الأفراد والأمم وأحسنها..

❁ ثالثاً: التنادي:

هنيئاً لك يا صاحبَ القرآن، يامن جمع الله في صدرك أصدقَ الحديث وأحسنَ الكلام، ومن كان في شكٍّ من هذا فليستفتِ الذوقَ والوجدان، والقلبَ والآذان، ليرى الفرقَ بين كلام الله وكلام الإنسان، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف. فاشدُدْ على هذه النعمة العظيمة كلتا يديك، وافتح لها قلبكَ، وأَصْغِ لها أذنيك.

(١) «لسان العرب» ٢/ ٣٤٨.

الحديث الرابع

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَتَلا عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فَتَلاهَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ حَدَّثْتَنَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، كل ذلك يؤمَرون بالقرآن. قال خَلَّاد: وزاد فيه حين قالوا: يا رسول الله، ذكّرنا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦][1].

(١) صحيح: رواه ابن حبان ٦٢٠٩، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

أية مرحلة تلك التي عاشها ذلك الجيل المتفرد في أجيال الدنيا حتى تبلغ معايشته أن يطلب من رسوله ﷺ ما يتزود به لآخرته.. ليس طلبًا كطلب المتعنتين من بني إسرائيل... إنما طلب المزيد ليتقرب ويزداد.

توقَّف عند هذه الحالة الفريدة طويلًا.. فلا يدرك حقيقتها إلا مَنْ عاشها.. ويتفاوت الناس بالاقتراب من حقيقتها بمقدار استحضارها وتصورها ومعايشة النفس لها.

أرأيت كيف جعل الله تعالى لأصحاب رسول الله ﷺ بصمةً في القرآن الكريم نفسه؟!

سبحان الله الذي ربط ذكرهم في كتابه، وجعل لهم أثرًا في كلامه... وما هذا إلا فَضْله الذي كتب لهم به الخلود.. ولا رادَّ لما أراد وقد كان ما أراد.

حقًّا إنهم -رضي الله عنهم- طلابٌ منهجهم القرآن، ومعلمهم رسول الله ﷺ وربهم ومربيهم هو الله جل جلاله.

أَعِدْ قراءةَ الحديثِ ثانيةً وستعرف أي أثر هذا الذي أبقاه الله لهؤلاء الكرام في القرآن..

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: مكانة الصحابة عند أهل القرآن.

الشاهد: "فأنزل الله".

لا بدَّ لطلاب القرآن أن يعرفوا علاقة الصحابة بالقرآن، فالصحابة رضي الله عنهم هم الثمرة المُثْلى من ثمار القرآن إلى قيام الساعة، فقد عاشوا نزول القرآن شيئًا فشيئًا... آية فآية... وسورة فسورة حتى آخر ما نزل، فكم من فارقٍ بين مَنْ يعيش هذه المرحلة

بهذه التفاصيل ويعايش آياتِ القرآنِ وسُورَهِ بهذا الشكل اليومي من التنزيل وبين من يأتي من بعده فيجد القرآن مجموعًا مكتوبًا محفوظًا.

ليس هذا هو الفارق بين الصحابة ومَن بعدَهم فحسب، لكنه الفارق كذلك بين الصحابة رضي الله عنهم وبين أصحاب الأنبياء عليهم السلام الذين أنزل الله عليهم كتابًا كاملًا أو جملةً واحدةً في ألواحٍ أو قراطيس.

إن البيت الذي تبنيه من أساسه إلى مفتاحه وتعيش بناءه لَبِنةً لَبِنةً غير البيت الذي تشتريه جاهزًا، هذا والبيت جماد إلا أنها المعايشة النفسية، وهكذا الزرع، وهكذا الولد، وهكذا كل شيءٍ، فكيف وهؤلاء الصحابة يعيشون الآيات آيةً آيةً، وما بين آيةٍ وآيةٍ، ويعيشون نزول أبعاض القرآن بعضًا بعضًا.. ونجمًا نجمًا.. فترةً زمنيةً تطول أحيانًا وتقصر، فكان هؤلاء الصحابة يعيشون هذه الآيات المعدودات النازلة وهي تربيهم وتصنعهم، يأخذون منها نصيبهم من الفهم والتدبر والمعايشة والأثر فتصنع عندهم التأثر والتصور، فهم قد عاشوا سبب نزولها ثم قرءوا الآيات طوال تلك الفترة مُتفكِّرين، وهكذا يتربَّون بالآيات النازلة مجموعةً إثر مجموعةٍ، ويسري النور في قلوبهم شيئًا فشيئًا، ورب العالمين - سبحانه - أعلم بما ينزل، ومتى ينزل، وعلى من ينزل، ورسول الله ﷺ يصنع هؤلاء صنعًا بما نزل من القرآن، حتى اختلط القرآن بدمائهم وأرواحهم شيئًا فشيئًا، وكيانهم الداخلي والاجتماعي يُبنى شيئًا فشيئًا، كما يبنى لحم الطفل وعظمه وشحمه وعصبه وشعره، فماذا يمثل القرآن عند هؤلاء الصحابة والصحابيات؟

الصحابة هم المجتمع الذي نزل القرآن فيهم، لضبط سلوكهم وعلاقتهم، حتى مع أعدائهم، فهم حَمَلة أعالي الصفات القرآنية:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة الأحزاب).

نحن اليوم نَعُدُّ أفضل الفضلاء بيننا هم أولئك المستمسكون بالكتاب والسُّنَّة، وبينهم وبين الكتاب والسُّنة ما بينهم من الأمد، وقد تلقَّوا الكتاب والسُّنَّة على أيدي الرجال، وهم وأشياخهم تلقَّوها من الورق، أما الصحابة فهم من عايشوا نزول الوحي غضًّا طريًّا، وأخذوا السُّنَّة حيَّة من منبعها الحي، يقرؤون الوحي من جهة وينظرون في المثل البشري الأعلى في تطبيق القرآن، وهو النبي ﷺ من جهة أخرى.. إذ المنبع الأعلى للوحيين بالنسبة لنا كبشر هو رسول الله ﷺ، فأين من استقى من عين النبع مِمَّن تلقَّى عن جداول؟... الجداول البعيدة والبعيدة؟

فلا يغترنَّ أحدٌ بعمله ولا عمَلَ مَن بعدَه، فربما يكون تشابه ظاهر العمل مغريًا وظاهرًا، لكن يبقى الفارق في اليقين كالفارق ما بين الغيب والشهادة، فرضي الله عن الصحابة، وجعلنا ممن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

المعنى الثاني: مرجعية لا نظير لها.

الشاهد: «كل ذلك يؤمرون بالقرآن».

ترسيخ المرجعية الوحيدة للقرآن أول الأمر، فلا ينبغي أن يتطلب أحد شيئًا من هنا أو هناك، فليس ثمة شيءٌ هو الأحسن في كل شيءٍ من هذا القرآن...

وهذا القرآن هو أحسن شيءٍ في كل شيءٍ، فقصصه أحسن القصص، وحديثه أحسن الحديث، وتذكيره أحسن التذكير، فهو في كل شيءٍ الأحسن، فالله سبحانه إنما حدد لهم الأحسن في الأحسن.. ولذا جاء في هذهِ الرواية قول الصحابي: كل ذلك يؤمرون بالقرآن.

فلا يسع صاحب القرآن إلا أن يكون هو الأحسن من بين الناس في كل شيءٍ... كما قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٣٨).

واتباعه أحسن الاتِّباع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (سورة النساء: ٥٩).

وَمَثَلُه أحسن المثل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٣٣).

وحديثه أحسن الحديث كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (سورة الزمر: ٢٣).

وهو -من بين ما أنزل الله - أحسن ما أنزل الله على الإطلاق: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة الزمر: ٥٥).

ومن ثَمَّ وجب أن يكون صاحبه أحسن الناس، ولا يسعه إلا ذلك، وهكذا لا يسع أمة القرآن إلا أن تكون أحسن الأمم..

فينبغي أن يكون الابتداء بالقرآن لمن أراد أن ينشئ الجيل الجديد الفريد..

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ (سورة الزمر: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ (سورة الكهف).

لقد حاولت أن أضع أصبعي على فجوة الفراغ والنقطة الفارقة ما بين تلقِّينا للقرآن وبين تلقي أصحاب النبي ﷺ، فلم أستطع إدراك الفارق بحقٍّ حتى حاولت الغياب عن الواقع الذي أنا فيه غارقًا بفكري متقمصًا حياة مجتمع الصحابة في حياتي..

كأنِّي في تلك البيوتات من حول المسجد، أعيش في واحدٍ منها، كواحد من أهلها، وفِكْري ذاهلٌ عن واقعي... أعيش مع هذا الزمان... في ذاك الزمان... في ذلك المكان... متنقلًا بكلِّ قواي التَّصويريَّة وبما أستطيع من أحاسيسها إلى أن رجعت بعدها لواقعي هذا مدركًا الفارق على وجه الدِّقَّة!

ذلك الفارق هو أنَّنا نتلقَّى القرآن من المصحف وهم يتلقَّونه من رسول الله مباشرة .. وكفاه فارقًا..

فارقًا في المهابة، في التعظيم، في التفاعل الإيماني والتفاعل العملي..

فلكي نعيشَ بعضَ المعايشة لا بد أن نُزيحَ عن بصيرتنا حُجُبَ الرَّان التي تَحولُ

دون تَلقِّينا هذا القرآن من الله مباشرةً.. أو كأننا كذلك فهذه منزلة الإحسان، وإنها لأعلى المنازل.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهل القرآن: أرأيتم كيف كانت محبة الصحابة رضي الله عنهم لكتاب الله ؟! أرأيتم كيف اختلط القرآن الكريم بوجدانهم، وامتزج بكيانهم ؟! وكيف كان تلهُّفهُم على نزول ما يَروِي غُلَّتَهُم منه ؟! حتى نزل القرآن موافقًا لهم فيما يطلبون، محققًا لما يرغبون – كما في الحديث الذي معنا –.

وهذا أعلى درجات التعايش، وأقصى حالات التفاعل .. وهنا تزول الدهشة ويتلاشى العَجَب، فهم قومٌ تلقَّوا كتابَ الله من رسول الله مباشرةً بدون واسطة، وعايشوا نزول القرآن سورةً سورة، وآيةً آية، فحصل لهم من الفهم والتدبر والمعايشة مالم يحصل لغيرهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

فاللهَ اللهَ في أصحاب رسول الله ﷺ – يا أهل القرآن – فهم كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «فإنَّهم كانوا أبَرَّ هذه الأمةِ قلوبًا، وأعمقَها عِلْمًا، وأَقَلَّها تَكَلُّفًا، وأقومَها هَدْيًا، وأحسنَها حالًا، قومًا اختارهم اللهُ – تعالى – لصحبةِ نبيِّهِ ﷺ فاعْرِفوا لهم فضلَهم واتَّبِعُوهُم في آثارِهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» [1].

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٧٠) رقم (٩٩٩).

الحديث الخامس

عَنْ طَلْحَةَ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما، أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ: لَا، فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الْوَصِيَّةُ أَوْ أُمِرُوا بِهَا؟ قَالَ: أَوْصَى بِكِتَابِ اللهِ[1].

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤١٩١

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

فَهْمُ أصحابِ رسول الله ﷺ لحياة نبيهم ﷺ ودينه فَهْمٌ عجيبٌ وعظيمٌ..

يجيبون على أعوصِ المسائل وأطولها بكلمةٍ أو كلمتين، فإذا القضيَّة محسومةٌ!

إنَّ جماع حياة المرء تختصر في وصيَّته، وأيُّ قاموسٍ يمكن أن يجمع حياة رسول الله ﷺ وأمانيه من بعد موته غير القرآن؟

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: مطابقةُ القولِ للعمل هو الأصل.

الشاهد: «كيف كتب على الناس الوصية...».

الأصل مطابقة القول للعمل، أي: ما دام النبي ﷺ قد أمر بالوصية فإن الأصل هو أنه قد أوصى.. إذًا لِم لَمْ يوصِ..؟!

سؤال في نفس طلحة قدم له بهذه المقدمة: أوصى النبي ﷺ؟ فقال: «لا» فقلت: كيف كتب على الناس الوصية؟

وما ذلك إلا لأنَّ لدى طلحة قاعدةً مستقرة هي أن النبي ﷺ لا يأمر بشيء إلا يعمل به، ولَمَّا لَمْ يبلغْه أن النبي ﷺ أوصى تساءل كيف أمر بالوصية إذاً؟

ترى أهو خاصٌّ بالنبي ﷺ وعليه فإن مشروعية الوصية لا تشمله من دون الأمة؟

أم تراه ليس للوجوب أم للإباحة أم ثمة شيء آخر لا نعرفه؟

فكان الجواب في قوله: أوصى بكتاب الله أي: إثبات مشروعية الوصية،

وإثبات عمل النبي ﷺ حيث إنه أوصى بكتاب الله.

وموضوع العمل بالعلم، وسبق العمل للقول لدى المربي بشكلٍ خاصٍّ ينبغي أن يصبح شيئًا راسخًا في نفس الطالب كالسجية التي لا تقبل الاختلاف ولا الاختلال، فهي قاعدة مطردة تقول: إن ما نقوله نعمل به، وإن ما نقوله اليوم قد عملنا به من قبل أن نقوله، فإذا لم نعمل به فثمة شيء يستحق السؤال عنه لكونه خلاف الأصل كما سأل طلحة، فتبين له أن المسألة جارية على الأصل.

المعنى الثاني: أعظم وصية لأعظم رجل.

الشاهد: «أَوصى بكتاب الله».

إن لوصية رسول الله ﷺ بكتاب الله معنى واسعًا، فهي الوصية حفظًا لكتاب الله، وعلمًا به، دعوةً وتحكيمًا وجهاداً، وكل واحد من هذه النقاط مجالٌ رحبٌ للفهم والعمل كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»:

والمراد بالوصية بكتاب الله: حفظه حسًّا ومعنىً، فيُكرم ويُصان ولا يُسافَر به إلى أرض العدو، ويُتَّبَعُ ما فيه فيُعملُ بأوامره ويُجتنبُ نواهيه ويُداوَم تعلمُه وتعليمُه ونحوُ ذلك [1]...

وهذه الكلمة تجعل المسلمَ كلما نظر إلى القرآن الكريم تذكر أن ما بين دفتي هذا الكتاب هو وصية رسول الله ﷺ وصيته التي كان هو أعظم العاملين بها، والتي طلب من الأمة أن يعملوا بها.

فيا أيها القارئ، حاول في هذه اللحظة أن تُتبع ذهنك وصايا الناس التي أوصوا بها بعد موتهم، فستجد أن وصايا الناس تناسب اهتماماتهم

(١) «فتح الباري» ٩/ ٦٧.

ومستوياتهم، فهل يناسب رسولَ الله ﷺ شيءٌ يوصي به غير القرآن؟!

تأمل كم جمع هذا الصحابي بثاقب فهمه بل بإلهام ربه له في هذهِ الكلمات عظمة القرآن وعظمة رسول ﷺ، فالوصية عادة ما تكون بأغلى ما ملكه الموصي وأثمن ما تركه.. وهل أغلى عند رسول الله ﷺ وأثمن من القرآن؟

والوصية عادة ما تكون بأخوف ما يخاف عليه المرء من المساس أو الإساءة أو التغيير أو نحو ذلك.

والوصية عادة ما تكون بأنفع ما يكون للموصي على حياته وعلى مدى الأيام وتقلبات الأحوال.

وهل من شيء يمكن أن يجمع كل هذه الأمور العظيمة مثل القرآن؟

وهل من شيء يمكن أن يجمع مراد رسول الله ﷺ ويفيض مثل كلام الله؟

وهل من شيء يمكن أن يملأ خزائن الموصَى لهم ويسدَّ كلَّ حاجياتهم وحاجيات كل أجيالهم المعنوية والحسيَّة ويفيض عليها مثل القرآن؟

أيها المسلم: هل سألت نفسك لحظة: من الموصَى إليه؟ ألست أنت؟

إذًا فماذا أنت صانعٌ بوصيَّة رسول الله ﷺ؟

أيها المسلم: أوصِ بما شئت، ولكن لا تنسَ الوصية بكتاب الله تعالى، فكما أنها وصية رسول الله ﷺ لك فهي وصيتك لمن بعدك، فلتكن هي السنة المتبعة في الذراري.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهلَ القرآن: من أراد أن ينزعكم بطريقة أو بأخرى من منهجيتكم القرآنية فقولوا له: كفانا أنا نعمل بوصية الرسول ﷺ.

إذا اختلفتم أو اختلف الناس في مناهجهم، فتنادَوا أنتم بالقرآن وقولوا: هذهِ وصية رسول الله ﷺ.

يا أهلَ القرآن: هذهِ الوصية لعظمتها لا يمكن لرجلٍ أن يتكفَّل بها وحده أو يكفي في تنفيذها على تمامها، بل ولا جيل، ولا كل الأجيال، لا ولن يحيطوا بها علمًا، فخذوا حَظَّكم منها، فالسعيد مَنْ كان حظُّه أكثر وأكبر وأرسخ.

يا أهلَ القرآن: إذا رأيتم الأمة ضعفت وهُزمت وولَّت الأدبار فأخرجوا لها ماعندكم، يا أمة سورة البقرة وآل عمران، يا أمة القرآن: هذه وصية رسول الله ﷺ.

الحديث السادس

عَنِ المِقْدادِ بنِ مَعْدِ يَكْرِبَ الكِنْدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «يُوشِك الرَّجل مُتكئًا على أَريكَتِهِ، يُحَدِّث بحديثٍ مِن حديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتابُ الله، فما وَجَدْنا مِنْ حَلالٍ اسْتحْللناه، وَما وَجَدْنا مِنْ حرامٍ حرمناه، ألا وإِنَّ ما حَرَّمَ رسولُ الله ﷺ مِثْلُ ما حرَّمَ اللهُ»[1].

(١) «رواه ابن ماجه» ١٢ وصححه الألباني رحمه الله.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

علامة من علامات الساعة لم تكن موجودة على عهد رسول الله ﷺ!

صورة غريبة لم يتصورْها أصحاب رسول الله ﷺ..!

صورة رجل مسلم مسترخٍ على أريكته يتكلم في أصلٍ من أصول هذا الدين..!

يتكلم هذا المسترخي في منهجية التلقي من القرآن والسنة..!

فأي كارثة ستحل بالأمة إذا تصدى للأصول المسترخون..؟

فانظر؛ كيف تصدى لهم الرسول ﷺ؟

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: التفطن للعدوان على السنة.

الشاهد: «بيننا وبينكم كتاب الله..».

إنَّ العلماء حين يوردون هذا الحديث مورد المعجزة، فذلك لما فيه من إخبارٍ بغيبٍ تحقق، ومع هذا فإن فيه الإخبار عن نوعية العدوان على سنة رسول الله ﷺ، حيث فيه التفريق بين كلام الله وبين رسول الله ﷺ وهو داخل في التحذير من التفريق بين الله وبين رسله، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ (سورة النساء).

إن كلمة بيننا وبينكم كتاب الله، ما وجدنا من حلال استحللناه، وما وجدنا من حرام حرمناه، كلمة حق أريد بها باطل، هو إلغاء السنة، وإلغاء التزام فهم النبي ﷺ للقرآن، واتباع الأهواء في تأويل الآيات! وقد كان بمقدور النبي ﷺ أن يرد هذه الدعوى بكلمة ويجعل نقضها من ذاتها حين يقول: «نعم، والقرآن أمر بطاعة رسول الله» لكنه ﷺ ما قال ذلك إنما فصل المسألة تفصيلًا وضبطها ضبطًا فقال: «ألا إن ما حرم رسول الله ﷺ مثلما حرم الله» بمعنى أن ما حرم رسول الله ﷺ في سنته مثل ما حرم الله سبحانه وتعالى في كتابه، إذ كله تحريم الله، فهذا تحريم الله عن طريق كتابه، وهذا تحريم الله عن طريق رسوله ﷺ، وطريق الاثنين واحد وهو الوحي، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (سورة النجم) كما أن مصدر تلقي الأمة للاثنين هو رسول الله ﷺ.

المعنى الثاني: الحذر من التفريق بين أهل القرآن وأهل الحديث.

الشاهد: «ألا وإن ماحرم رسول الله مثل ما حرم الله»

قوله: «ألا إن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله» بالإضافة للمعنى العَقَديِّ الذي ينبغي التنبيه عليه، فإنَّ ثمةَ مقتضىً عملياً ينبغي الحذرُ منه، هو افتعالُ اختلافٍ بين أهلِ القرآنِ طلابًا وعلماءَ ومناهجَ وأهلِ الحديثِ طلاباً وعلماءَ ومناهجَ، وهذا التفريق العملي يصنع الفُرقةَ النفسية، والواقعية بل المنهجية حتى لو لم تتحدث به ألسنتنا.

ولذا كان لزامًا على أهل القرآن أن ينصُّوا في مناهجهم على مبدئية العلم بالسنة والتربية عليها والتزامها عملًا وخلقًا، وأنهم أحق الناس بها الذين لا يسبقهم إليها أحد، كما ينبغي لأهل الحديث أن يقيموا مناهجهم أساسًا على القرآن حفظًا وعلمًا وعملًا وطريقة حياة..

المعنى الثالث: اكتشاف حقيقة الدعاوى.

الشاهد: « بيننا وبينكم كتاب الله». ؟؟؟

إنَّ عرضَ المسألةِ بهذه الطريقة بيننا وبينكم كتاب الله عرضٌ مخالفٌ للحقيقة، إذ ليس مرادُ هؤلاءِ هو التحاكمَ إلى كتاب الله إنما مقصودُهم من الاقتصار في التحليل والتحريم على ما ورد في القرآن الكريم فقط ليس إلا ردًّا لسنة النبي ﷺ!

مرادهم تحميل القرآن ما لا يحتمل، والمرور عن طريقه إلى تحقيق أهوائهم وضلالتهم البدعية والكفرية!

ولَكَمْ أعجب من سرعة بديهةِ عليٍّ رضي الله عنه حين أجاب أئمة هذا المبدأ وهم الخوارج حين فاجأوه بهذا الاعتراض وهو يخطب في المسجد، فقد قام له رجل منهم فقال: لا حُكْمَ إلا لله، ثم قام آخر فقال: لا حُكْمَ إلا لله، ثم قاموا من نواحي المسجد يحكِّمون الله، فأشار عليهم بيده: أنِ اجلسوا، نعم لا حكم إلا لله، كلمة حق يبتغى بها باطل، حكم الله أنتظر فيكم... .

لا غرابة في حضور جواب أبي الحسن رضي الله عنهما فإنها الطبيعة النورانية التي تكشف الظلمة في الشبه، وتخرج عقدتها الخبيثة التي نفث عليها أصحابها من تأويلاتهم الفاسدة فيدركها مَنْ تربَّى على هذا الكتاب .. الذي سماه الله نورًا .. عند أول بزوغ رأسها الخبيث، فنور القرآن ينطبع على صاحبه وفي قلبه ولبِّه وفكره، فهو لا يزيغ إذا زاغ الناس، ولا يضل إذا أظلم الفكر واختلطت الأمور وتشابكت الشبهات..

المعنى الرابع: أليس كتاب الله تعالى قاسمًا مشتركًا بين أهل الحق وأهل الشبهات والأهواء؟

الشاهد: «بيننا وبينكم كتاب الله»

أليس من آمن بالقرآن قبلناه وسرنا معه في هذا الطريق إلى منتهاه ؟ لكن رسول

الله ﷺ رد هذا الأمر مع هؤلاء الذين لم يتوقَّفوا عند الإيمان بالقرآن الذي أشاروا له بقولهم: بيننا وبينكم كتاب الله، فنسبة الكتاب لله نسبة إيمانٍ وإقرارٍ، لا بل زادوا على ذلك بأن عملوا به، أحلوا حلاله وحرموا حرامه، ولذلك الإشارة بقولهم: «ما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه..

ومع هذا ردهم رسول الله ﷺ ورد إيمانهم ورد التزامهم بالتحليل والتحريم، ولم يقبل منهم ذلك... فهم داخلون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء: ١٥٠).

فإذا رَدَّ رسولُ الله ﷺ إيمانَ هؤلاء وعملَهم فماذا تراه سيقول في إيمان مَنْ رد كتاب الله تعالى؟

إذا تأملت الحديث ستجد أنهم لم يصرحوا بالتطرق إلى السُّنة بكلمةٍ.. ولم يصرحوا بذكر رسول الله ﷺ بشيء أبداً.. لكن النبي ﷺ كشف المقصود الأساس.

إن المقصود هو السُّنة، المقصود هو الرسول ﷺ.

وإلا، فكم مصدراً لنا نحن المسلمين؟ أَلَيْسَا مصدرين؛ الكتاب والسنة؟ فماذا يعني الأخذ بحلال وحرام الكتاب وحده؟ ألا يلزم من هذا لزوماً رد السنة ورد الرسول ﷺ؟

هكذا فلننتبه إلى أمثال هؤلاء ممن يركبون المتفق عليه ليوقعوا الناس في الكفر.. فأي شيء متفق عليه مثل القرآن الكريم.. أي قاسم مشترك أعظم من القرآن الكريم؟ إنها حيلة اختراق حصون الشرع بالشرع نفسه.. إنه ركوب مركب الشرع لإغراق سفينة الشرع، فأناس جاءوا لهدم الشرع بالشرع، وذلك بوصية رسول الله ﷺ بآل بيته، وما أرادوا بيته بالإكرام ولكن أرادوا المجوسية بالعلو على الإسلام!

وأناس نادوا على التحكيم للقرآن دون سواه.....

وأناس أخذوا جزءاً من الأدلة لهدم الدين كمن أخذوا أدلة وجوب الإيمان بأن الله بيده كل شيء لينفوا عن العبد كل شيء، وأناس على الضِّدِّ من ذلك.

فالنبي ﷺ قد نبه إلى أصلٍ خطيرٍ من أصول الضلال من خلال العدوان بالأصل الأول وهو القرآن على الأصل الثاني وهو السنة.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهل القرآن، ليست الحماية لكتاب الله حماية ورقية على كل الأحوال وفي كل الحالات والأوقات، فللقرآن تكاليفه التي تصفي الناس تصفيةً وتغربلهم غربلةً ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ (سورة النساء: ١٠٥).

يا أهل القرآن، لابد من البصيرة النافذة.. وإذا لم تكن لأهل القرآن فما أدري لمن تكون؟! إن هؤلاء احتموا لأنفسهم وَحَمَوْا باطلهم بدعوى المحافظة على القرآن « بيننا وبينكم كتاب الله»!

إنَّ الرسول ﷺ لم يناقشهم في جزئيات ما استحلوه وما حرموه، وإنما رد أصلهم كله جملةً وتفصيلًا، وهذا هو الأنسب مع هؤلاء وأمثالهم من أصحاب الدعاوى، فهم يتحدثون في صفٍّ لا يقبل الشق، ووحدةٍ تشريعيةٍ لا تقبل التفريق، وجرأةٍ على رسول الله ﷺ لا تقبل المفاوضة ولا الاستماع.

يا أهل القرآن، أرأيتم كيف يدمر المسترخون الدين؟ أرأيتم كيف ارتفع هذا الدين حين أخذه الأَوَّلون بِقوَّةٍ؟ وكيف يدمره هؤلاء حين تذهب الجدية؟.

الحديث السابع

عن عامرٍ قال: سألتُ علقمةَ هل كان ابنُ مسعودٍ شهدَ مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ الجنِّ؟ قال: فقال علقمةُ: أنا سألتُ ابنَ مسعود، فقلتُ: هل شَهِدَ أحدٌ منكم مع رسولِ اللهِ ﷺ ليلةَ الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ذاتَ ليلةٍ، ففقدناه، فالتمسناه في الأوديةِ والشعاب، فقلنا استُطِيرَ أو اغتِيلَ، قال: فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قِبَلِ حِراء، قال: فقلنا: يا رسولَ الله، فقدناك فطلبناك فلمْ نجدْكَ، فبتنا بِشرِّ ليلةٍ بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجنِّ، فذهبتُ معه فقرأتُ عليهم القرآنَ»، قال: فانطلقَ بنا فأرانا آثارَهم، وآثارَ نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «لكم كلُّ عَظمٍ ذُكر اسمُ اللهِ عليه يقعُ في أيديكم أَوفَرَ ما يكون لحمًا، وكلُّ بَعْرةٍ عَلفٌ لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعامُ إخوانِكم»[1].

(١) رواه مسلم ٤٥٠.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

يشهد الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ما يسمى بليلة الجن.

يَروي ابن مسعود رضي الله عنه ما شهده وسمعه من أحداثها، ويشير لِمَا لم يشاهده.

غاب رسول الله ﷺ عنهم وما علموا سبب غيابه!

طلبوه وما وجدوه!

طارت قلوبهم لأحب إنسان إلى قلوبهم، فهاموا بين الأودية والشِّعاب، وسَعَوْا في ظلماتها وما وجدوه.

فكيف سيبيتون ليلةً فقيدُهُمْ فيها رسولُ الله ﷺ.

وهناك كان لقاء رسول الله ﷺ بالجن، فأي لقاء مثل لقاء رسول الله ﷺ هذه الليلة بالجِنَّة؟

إنه هنا يذهب بنفسه ولا يرسل أحدَ أصحابِهِ كما كان يرسل رسله إلى الأقوام؟

إنه لا يذهب إلا بعد مجيء مُمثِّلهم وداعيهم ودليلهم إلى مناطقهم! إنه ليس لقاءً عاديًّا: إنه لقاء هداية، عنوانه وتاجه القرآن الذي ما احتاج إلى ترجمان!

إنه يحدد في هذا اللقاء العلاقات، ويمد الجسور، ويوزع الحقوق، بل يدخل الجنّ هنا بطلبٍ منهم كجزء من أمة محمد ﷺ، ليصبح منهم الصحابة ومنهم التابعون، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، حمدًا مطلقًا، والحمد له سبحانه على أن بعث فينا هذا النبي العظيم ﷺ.

ثم يا لجمال الصباح حينما طلع عليهم رسول الله ﷺ سالمًا مع مطلع الصباح مسفرًا.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى: القرآن هو كتاب الدعوة وأسلوبها ونعتها.

الشاهد: «فقرأتُ عليهم القرآن».

لم يذكر النبي ﷺ عن نفسه بعد وصوله إليهم أنه قال لهم كذا، أو قدم لهم بالدعاء، أو الثناء إنما جاءت الرواية بحرف الفاء ليعقب فور وصوله ابتداءه بالقرآن، فلا ترجمة للجن، ولا حاجة لإيضاح أو تسهيل أو تقريب! ولذا قال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن».

فلم يكن الأسلوب بقراءة القرآن على المدعوِّين أسلوبًا خاصًّا لم يستخدمه النبي ﷺ إلا مع الجن، بل كان هذا منهجه ﷺ في الدعوة، فإن لم يكن في الابتداء ففي الأثناء أو عند الختام والانتهاء.

وسر استخدام النبي ﷺ قراءة القرآن على مختلف المَدْعُوِّين من مختلف الأقوام، بل مختلف العوالم هو - والله أعلم - أن في القرآن قوةً تنفذ إلى جميع النفوس مهما اختلفت، حيث لا توجد خاصية النفاذ هذهِ في أي كلام آخر إطلاقًا مثلما توجد في القرآن.. ولئن كان النبي ﷺ يقول: «إن من البيان لسحرًا»[1].. فإن بيان القرآن شيء فوق كلِّ خيالٍ، وأقوى من كلِّ سحرٍ، ولا طاقة لمُتَحدٍّ بالثَّبات أمامه..

فإذا نفذ كلام الله تعالى إلى نفوس الجن نفسها حتى إنها لم تُطِق الردَّ أو العناد فآمنت، وانفلتت من فورها منطلقةً إلى قومها داعية بالقرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (سورة الأحقاف: ٢٩)، فأي نفوسٍ أُخرى تثبت أمام القرآن بعدما لم تثبت نفوس الجن نفسها؟!

(١) «صحيح البخاري» - حديث رقم ٥٤٣٤.

يجب أن نُحْسِنَ قراءةَ القرآن، ونَحسُنَ عند قراءة القرآن، فذلك كافٍ لنفاذ نوره في نفوسنا، فإنني – والله – على ثقةٍ بأننا إذا أحسنَّا قراءة القرآن، وأحسنَّا عند قراءة القرآن... أي قرأنا القرآن ونحن حال قراءته من الصدق والإخلاص والخشية والإحسان بحيث كأننا نرى الله سبحانه فلسوف ينفذ كلام الله العظيم إلى نفوسٍ ما كان لها أن تؤمن بغير القرآن، وسوف نشهد فتحًا جديدًا على أيدي أهل القرآن بالقرآن، وأيدي أهل الدعوة بالقرآن، وأيدي أهل الحديث بالقرآن.

لو رجعنا لجيل الصحابة رضي الله عنهم ودرسنا من أسلم منهم حين قُرِئ عليه القرآن لوجدنا التنوع الذي يشهد بأنه لا نفس تستعصي على القرآن، وتنوع المهتدين هؤلاء يقدم للدعاة شهادة تقول: إنما نحن عينات ونماذج من مجموعةٍ تمثل البشرية، نشهد بأنْ لا نفوس تقف أمام القرآن.

هذا النفاذ هو نفاذ النور إلى الظلمة، أفرأيت أصعب ظلمة تستعصي على أضعف نور.. كيف والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (سورة النساء: ١٧٤)، ويقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (سورة الحديد: ٩).

فإذا أردتَ أن أوضحَ لك السرَّ في عدم قدرة النفوس البشرية على الاستعصاء على القرآن فذلك عائد – والله أعلم – إلى أن منطق كل شخص يحمل صفاته، وختم كل شخص كامن في كلامه، فمنطق القوة عائد لقوة صاحبه، ومنطق الرحمة لرحمة صاحبه، ومنطق العقل والحكمة عائد لعقل وحكمة صاحبه وهكذا، إذاً، فكلام الله لابد أن يحمل صفات الله وليس عليك أنت إلا أن تحسن إيصال كلام الله إلى النفوس ليفعل هو فعله، وبعدها فأي قوةٍ من البشر والجن ستقف أمام كلام الله الموصوف

سبحانه الذي هو كلامه .. وكفى، وأي رحيمٍ سيقف أمام كلام الله الذي يحمل رحمة الله، وأي عزيز سوف يستعصي على كلام الله الذي يحمل عزة الله، وأي عالم أو خبير يقف أمام كلام الله وفيه علم العليم الخبير، وهكذا تعالَ إلى كل صفة من صفات البشر والجن وضَعْها بجوار اسم الله تعالى، ولله المثل الأعلى... فهل تصورنا شيئًا من السر؟

إن النفوس تعرف ذلك جيدًا وتقرُّ به وإن استكبر في بعض الأحيان اللسان.. أو ألحد الإنسان.

إنها تشهد في داخلها بالعظمة التي لا ترام ولا تضام، لهذا الكلام، ففي الصحابة عباقرة بل جبابرة في الجاهلية كعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيهم بلغاء شعراء كحسان رضي الله عنه، وفيهم رحماء كأبي بكرٍ، وفيهم قُطَّاع طرقٍ في الجاهلية كأبي ذرٍّ، وفيهم صغار، وفيهم كبار، وفيهم نساء، وفيهم كرماء، وفيهم فقراء وأغنياء، وهكذا فما من أحدٍ من هؤلاء استطاع أن يمنع نفاذ نور القرآن إلى ظلمة نفسه.

ولكم أعجبني قول ذاك البروفيسور الأمريكي الملحد الذي دخل الإسلام، وبيَّن سبب دخوله للإسلام بعدما أسلم في لقاء معه في قناة الشارقة الفضائية حينما قال: حين قرأت القرآن شعرت أن القرآن يقرؤني..

فلنثق ثقة مطلقة بأعظم معجزة ظهرت وبقيت بعد رحيل صاحبها ﷺ وهو بين يدي كل مَنْ يريد، لسوف نكتسح ظلمات النفوس بكلام ربها، ولسوف تخرُّ النفوس خضعاناً لكلام الله سواء في ذلك النفوس القوية أو الضعيفة، العنيدة أو اللينة، الطيبة أو الخبيثة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا

﴿مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰٓ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة الرعد: ٣١).

قال العلماء: جواب الشرط في هذه الآية محذوف، تقديره "لكان هذا القرآن" والمعنى لو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن، وما نشاهده في نفوسنا هو ما يحدث في نفوس أعداء القرآن، ولكنه كفر اللسان والعناد والجحود كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٣٣).

كم يفرح حامل القرآن بِحَمْل القرآن إلى عالَمٍ لم يبلغهم القرآن مقتديًا بحمل رسول الله ﷺ القرآن إلى عالم الجنِّ، فلنحمله إلى عوالم من الإنس لم يبلغهم القرآن.

لا تقل لا أستطيع الوصول إلى هذه العوالم.. لا تقل الحمل ثقيل ولا أستطيع حمله..

لا تعتذر بأي عذرٍ يحول بينك وبين البلاغ..

فإن السِّرَّ ليس فيك، إنَّما السِّرُّ في كلام الله الذي ينفذ إلى كل قلب وكل عقل وكل أحد..

وليس عليك إلا أن تُسمعَهم.. أسمِعْهم القرآنَ وَدَعه يأخذ مجراه في القلوب والأفكار، كما يأخذ الدواء مفعوله إذا دخل إلى الجسم، بل هو أشد؛ لأنه في القلب مباشرة، بل لأنه كلام الله سبحانه..

أرأيت كيف علق الله الواجب على الإسماع وعلق أثره على الاستماع..

الإسماع والاستماع ليس إلا.. فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة: ٦).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (سورة الأحقاف: ٢٩).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة المائدة: ٨٣).

هذه خاصية كلام الله وحده، وكم يشهد التاريخ والواقع بمهتدين كانت هدايتهم في عداد المستحيل، وما هو إلا أن استمعوا للقرآن، فإذا بالقرآن يحول المستحيل إلى ضده، فمن واقع الكفر إلى واقع الهداية، ومن دعاة الكفر إلى دعاة الهداية، ومن إمامة ضلالة إلى إمامة هدى..

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهل القرآن هذه هي الخطوة الأولى والخطوة الأخيرة... فكتاب الله في الابتداء، وكتاب الله في الانتهاء..

أصبح العَظْمُ باسم الله أوفر ما يكون لحمًا.. وتحول بعر الدواب إلى علفٍ..

وعاد الحطام إلى طعام.. وانقلب حالهم إلى أحسن حال بعدما قرىء عليهم القرآن، فأصبحوا من أهل الإيمان..

يا جميعَ الأنام إنّ الذي يكسو العظام الجرداء المُلقاة في المزابل لحمًا أوفر مما كان لقادر على أن يُحييَ عظامَ البشرية إن هزلت، ويرفعها من القمامة إلى الإمامة.

الحديث الثامن

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: «انْطَلَقَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ».[1]

(١) متفق عليه - البخاري ٤٩٢١ وسلم ٢١٣٠

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

كم هو عظيمٌ مقامُ رسولِ اللهِ ﷺ عند الله ...

كم غيَّرَ الله في نظام السموات والأرض لأجل بعثة رسول الله ﷺ من حراسة، وشهب، وأخبار مقطوعة، وشياطين مرجومة، وما إلى ذلك لأجله ﷺ...

كم حيَّر هذا الأمر الشَّياطين فما عرفوا السرَّ إلا حين استمعوا لهذا القرآن...

كم حبس الوجود أنفاسه لا يعرف تفسيرًا لما حدث: تُرى ما كُلُّ هذه الإرهاصات، ولأجل ماذا؟

انظر في حقائق هذا الحديث وستجدها عجباً! ولكن أعجب العجب أن يصف الجن - وشأنهم كله عجب - هذا القرآن لما استمعوه بأنه عجبٌ، فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا!

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: عجبًا للجن كيف عرفوا عظمة القرآن.

الشاهد: إنا سمعنا قرآناً عجباً. يهدي إلى الرشد.

فلقد بقي منع الجن من السماء ومنعهم من القعود في مقاعد الاستماع المعتادة لهم أمرًا مذهلًا بالنسبة لهم، ولأجله ضربوا مشارق الأرض ومغاربها بحثًا عن السر، وما إن سمعوا القرآن حتى عرفوا أنه الأمر الذي استحق أن يمنعوا لأجله، وأن تحرس السماء لأجله.

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ ﴾ (سورة الجن)، إذا كان شأن الجن كله

عجباً، أليس من العجب إذاً أن يصف الجن هذا القرآن بأنه ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾؟!

إن هذه الحادثة تستحق الدراسة المتأنية، وذلك لأمور، أولها: أنها اللقاء الأول والوحيد الذي ذكره الله عن الجن مع القرآن. وثانيها: وصف الجن له بأنه عجب. وثالثها: أن ما أدركه الجن من اللقاء الأول حقائق جد عظيمة وكبيرة، كما في سورة الجن، ربما لا يدركها الكثير من بني آدم إلا بعد إيمانهم بسنين طويلة. ورابعها: ما فيها من مفاتيح هداية.. لو عرفها الناس.. كيف والله سبحانه هو مَنْ يروي عنهم هذه الحقائق...

ومنها التأييد الذي يجده الداعية وهو يدعو بالقرآن، ولغة القرآن وأسلوب القرآن، تأييدًا لا يجده العبد إذا اعتمد في ذلك على غير القرآن، وهكذا البركة المتحققة، والفوز الذاتي، والهداية النافذة وغير ذلك مما هو فوق التصور والحساب، فإذا تأملت هذا الحديث وجدت أن النبي ﷺ كان يصلي بأصحابه صلاة الفجر، وأن الله تعالى هو الذي صرف إليه أولئك الجن ليستمعوا قراءة القرآن وهذا ما قاله الله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ (سورة الأحقاف)، فانشغال المصلي الكامل بالله وانصرافه الكامل عمن سواه من أسباب صرف الله تعالى الجن لقرآنه، وهكذا كان شأن رسول الله ﷺ حتى ساق الله الجن إليه، وهو ذاهبٌ مع كلام ربه كلَّ مَذْهَب، وكلام ربه يصنع في نفوس نفر الجن كل شيء، وما إن انتهى من قراءته حتى

انصرفوا دعاةً إلى الله، ولعل الصلاة لم تتم بعد ولم ينصرف النبي ﷺ من صلاته.

المعنى الثاني: ممارسة دعوة الجن بالقرآن.

الشاهد: «ولوا إلى قومهم منذرين».

إن دعوة الجن مشروعة لأتباع النبي ﷺ اقتداءً بالنبي ﷺ، وبنفس الطريقة، ألا إنها قراءة القرآن الجهرية في الصلاة وكذا في غير الصلاة..

نعم، نحن لا نقصد أماكن معينة لهذهِ الدعوة، ولا نسير - عادةً - مع أحدٍ منهم لغرض الدعوة، لكن الله سبحانه يصرف عباده الجن ليستمعوا لقراءة المخلصين الصادقين وهذا كفيل - بإذن الله - لِأَنْ يصرف قلوبهم لتهتدي.

ومن يدري كم مِنْ قائمٍ بالليل في بيته صرف الله إليه من الجن مَنْ صرف وهداهم بهذا القرآن وكُتبوا هم وذراريهم في صحيفته بعدما اهتدوا، وكم من عوامر من الجن تعمر بيوتًا لم تسمع فيها قرآنًا بليل.. ألا فليمارس أهل القرآن الدعوة كل ليلة، دعوة هؤلاء الأقوام وهدايتهم - بإذن الله..

أمَّا الجنُّ الصالحون فحدث ولا حرج عن اجتماعهم للأذان والإقامة والصلاة.

المعنى الثالث: وقت الفجر مبارك، فيه الأحداث العظيمة.

الشاهد: فأدركوهم في سوق عكاظ في صلاة الفجر.

لقد عرف الجن منعهم من السماء أن شيئًا في الأرض حدث... وذلك لأنهم موقنون أنه لا يحدث في الأرض إلا لأمرٍ يصدر من السماء، ومن ثَمَّ فقد كان الجن يحاولون تتبع الخبر من مصدره..

ويبدو – والله أعلم – أنهم بقوا فترة طويلة حتى أدركوا ما حدث؛ لأن الحيلولة بينهم وبين خبر السماء كان من إرهاصات النبوة و بداية البعثة ونزول الوحي.

وبقي الجن فترةً من الوقت بحيث أصبح للنبي ﷺ أصحاب، وبقي يصلي بهم الفجر جماعةً، فأدركوهم في سوق عكاظ في صلاة الفجر..

فكم في صلاة الفجر من بركة، وكم في صلاة الجماعة لصلاة الفجر من بركةٍ، وكم لقرآن الفجر من بركةٍ.

وكم يحدث مثل هذا الأمر ويتكرر مع أهل الفجر وهم لا يشعرون.

وكم يفوت مَنْ يتخلف عن صلاة الفجر من الخير المشهود، والخير الموعود، وهم في تفريطهم مغرورون أو في غَيِّهم سادرون، أو على ظلمهم مستمرون.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا من تطلبون الارتفاع إلى أعلى وأعلى.. سَلُوا مَنْ كانت لديهم القدرة على الارتفاع إلى السماء بعدما منعوا، فعادوا يبحثون في الأرض عن سبب منعهم من خبر السماء، وحرمانهم من مقاعدهم في السماء.. سلوهم أي ارتفاع رفعوا إليه! وأي مقامٍ سامٍ بلغوه حين أخذوا بهذا الكتاب!

فكأنَّ منادِيَهم المؤمن يقول: لقد عرفنا أن الطريق الصحيح إلى السماء يكون بهذا القرآن العظيم، فكل رفعة لرفيعِ قدرٍ تزداد بهذا القرآن رفعةً، ألم يقل الله عز وجل عن القرآن لأرفع الناس قَدْرًا ﷺ كما قالها لأحط الناس قَدْراً: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٤٤).

الحديث التاسع

عن أبي جُهيمِ بنِ الصِّمَّة -رضي الله عنه- أن رجلين اختلفا في آية من القرآن، فقال هذا: تلقيتُها من رسول الله ﷺ، وقال الآخر: تلقيتُها من رسول الله ﷺ، فسألا النبيَّ ﷺ فقال: القرآن يُقرأ على سبعة أحرف فلا تُمَارُوا في القرآن، فإنّ مِراءً في القرآنِ كُفْر[1].

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٥٤٢ وصححه الألباني

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

أهميةُ كلِّ شيء بقدر خطورته..

وحِمى كلِّ شيء بقدر مهابته وعظمته.

فهل من شيء بين السماء والأرض أعظم من القرآن وأخطر شأناً منه؟!

ليس ثمة محظور أعظم من الكفر، وليس الكفر بالقرآن وحده كفراً، إنما المراء في القرآن كفرٌ.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: لايوقِعُكَ غِلٌ في قبيح.

الشاهد: فلا تماروا في القرآن.

إذا كان النبي ﷺ نهى عن الجدل في عموم الأمور فإن المراء في كتاب الله أقبح ما يكون.. كتاب الله لا يحتمل المراء..غاية المماري أنه يريد الانتصار لنفسه بإبطال حجة خصمه .. فمن سيكون المنتصر إذا كان المراء في كتاب الله..؟! كيف سيسعى البعض لإبطال حُجَّة البعض وكلاهما يحتج بكتاب الله..؟! ألن يكون طلب الانتصار للنفس على كتاب الله..؟! ألن يمس القرآن بحجة أنه حجة للخصم؟! ألن يستكبر البعض على قبول حجة القرآن من باب الاستكبار على الاستسلام للخصم؟!

ألا يفضي ذلك إلى ضرب كتاب الله بعضه ببعض؟

هات أنت الحجة من كلام الله هنا.. وهات أنت الحجة من كلام الله من هناك.. وتصارعا!

وتتداول الآيات..، وربما أدى هذا إلى التضارب، وربما أفضى ذلك إلى عجز بعضهم عن فهم الآيات.. وربما شكك في الآيات وبلغ الشك أعماق الإيمان!

وربما كان ذلك أمام الجموع فبلغ الشكُّ بعضَ الحاضرين.. وربما جَرَّأ ذلك البعضَ على المزيد من هذا الهُراء أو المِراء، فأي عدوانٍ أعظم من هذا العدوان على كتاب الله؟!

أليس هذا مضادًّا لما أنزل الله لأجله القرآن؟

أليست الآيات إذا أنزلت وقرئت على المؤمنين زادتهم إيماناً؟

أليست مهمة الرسول ﷺ أن يتلو عليهم الآيات ويعلمهم ويزكيهم بها؟

أوليس الجدل ضد مبدأ التزكية؟ أوليست قساوة الجدل ضد رقة القلوب المؤمنة؟ فكيف والمراء هو معدن العدوان؟ فهي ليست غلظة سلبية فحسب مع القرآن، إنما غلظة وقسوة بعدوان.

أمور كثيرة وعواقب وخيمة للمراء في كتاب الله..

إذًا، أليس المراءُ في كتاب الله «كفراً» كما ذكر النبي ﷺ؟!

المعنى الثاني: عزل المراء عن أهل القرآن.

الشاهد: فإن مراءً في القرآن كفر

إذا نظرنا في حياة النشء اليوم وجدنا أن الصفة المشتركة فيما بينهم هي المراء، فالمراء في كل شيء! المراء فيما يعشقون من ألعاب ولاعبين، والمراء في ما يمتلكون من مواهب يُسَخِّرونها في التحدي، المراء فيما

يملكون من هواتف نَقَّالة أو سيارات وأجهزة حديثة أو نحو ذلك..

فتجد النشء يمارس المراء ليل نهار، وعلى وسادته... بينه وبين نفسه قبيل أن ينام، وربما كانت أحلامه كذلك، وإذا استيقظ استيقظ وعلى رأس أفكاره المراء، والإعداد لجولة مراء مع زميل ممارٍ في موضوع تافهٍ..!

وعلى هذا المنوال تجري حياتهم، لذا كان قطع المراء مع ابتداء التزامه بالحلقات والتحفيظ أمراً هاماً جداً لئلا يدخل القرآن في نفس البرمجة، وليعمل للطالب تخلية ثم تَحلية..

والخلاص من هذا الأمر المتعدي الضرر لا يكون بالنصيحة العابرة.. إنما يكون بمنهجٍ تربويٍّ يملأ القلب والعقل والحياة بالجدية والنفع..

برنامج يعتمد إيجاد البديل النافع للطالب عن المراء، ويلتزم الحكمة والتيسير.. كلٌّ حسب عمره وشخصه..

فإن مهمة تحفيظ الطالب ليست كالتسجيل في مسجل، إنما هي مهمة متكاملة، ثمرتها المرجوة حفظ القرآن، وأداء حقه بقدر الطاقة..

فلا شك أنه قد كان في طريق الطالب السابق عوائق وعقبات، وأهواء، وسلبيات قديمة مترسخة، وما إلى ذلك..

فكل هذا مطلوبٌ إزالتُه لأجل تعبيد الطريق للقرآن، وتطهير الأرض لغرسه، ثم دوام رعايته من عودة الهوام والأعشاب الضارة..

❁ ثالثاً: التنادي:

لَمَّا كان القرآن من العظمة بحيث لا يحدُّ قدره أبدًا كان المراء في هذا الكتاب يبلغ بالعبد مبلغ الكفر، إِذِ القرآنُ مصدر الإيمان، ومؤسس الإيمان، وهو كلام الله سبحانه.. فهو كما قال بلال بن سعد شيخ الأوزاعي في الذنب الصغير: لا تنظر إلى صِغَرِ معصيتك، ولكن انظر إلى عظمة مَنْ عصيتَ.

وهنا يقال: لا تنظر إلى المراء في ذاته، ولكن انظر إلى عظمة القرآن.

فيا للقرآن ما أعظمه! ويا لصاحب القرآن ما أدقَّ محاسبتَه نفسَه ووقايته على كلامه..

فالقرآن عنده خط أحمر لا يقبل المقاربة، وإذا ما ولج صاحبه هذا الباب - غافلًا - عاد وتاب، واستغفر ربه وخر راكعًا وأناب..

الحديث العاشر

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»[1].

(١) صحيح: رواه ابن حبان ٩٧٢، قاله شعيب الأرنؤوط.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

يُقْبِل العبد بِكُلِّيَّته على الله، نافضًا يديه من كل الأسباب، مفوضًا أمره كله لله، متخذًا أسماءَ اللهِ الحسنى كلَّها وسيلتَه إلى الله يسأله باسمه الأعظم... لو بحث العبد فيما خطه قلم البشر في كل الدنيا لم يجد كلماتٍ تصعد معها روحه وفكره حين تصعد معها حاجته... من غير أن يذكر حاجة إنما حاجته العظمى هي القرآن.

فما أمتعَ وأخشعَ هذا الدعاء إذا خرج من قلبك كما خرج من قلب الحبيب ﷺ.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: اليقين والاستسلام

الشاهد: «ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك»

إن في هذا الحديث بناءً لليقين قَلَّ نظيرُه.. في ظرف عصيب يمرُّ فيه العبد، ولو أنه وجد من يفرج همه من البشر، أو يقضي عنه دينه، أو يخرجه من كربته لما كان لهمِّه وجود... فهو مهموم مقطوع...

على هذه النفس المهمومة المقطوعة تأتي هذه الكلمات المهيبة... الكلمات العظيمة الشاملة وأيُّ كلماتٍ أعظمُ من أسماء الله الحسنى ؟ .. أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علَّمْتَه أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، فهل لعظمة هذه الكلمات المرفوعة من هذه النفس لله من منتهى؟!

وقبل هذه الكلمات كانت العبودية والتعبد بين يدي الله من سليل العبودية الذي لا يملك شيئًا... العبد الذي فوَّض لربّه كلَّ أمره ورضي بحكمه أيًا كان...

لكن ماذا إذا أراد الله إبقاء همه عليه ولزوم دَينه وثبات كربته..؟

هنا اليقين: اليقين الذي يعرضه النبي ﷺ كشرط وجزاؤه لا يتخلف أبدًا... فإذا وُجِد هذا وُجِد هذا...

ألم يقل النبي ﷺ في أول الحديث: ما قال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن... وقال في آخره: إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحًا.

لا تعجل على الجواب إن لمْ تُجَبْ من أول مرة... قُلْهُ... كَرِّرْهُ... اجعل قلبك يعيش كلماته بل منازله... ستذهب بعيدًا... عاليًا في هذه الغرفات والمقامات... عندها تشعر أن الإجابة وعدمها عندك سواء... ترى أن أعظم مكافأة هي ما فتح لك من معاني هذا الدعاء.. وعندها سيفرج الهم ويكون الفرح، وتزول الكربة ويكون الأنس قطعًا.

المعنى الثاني: القرآن هو الشفاء الحقيقي للقلوب.

الشاهد: أن تجعل القرآنَ ربيعَ قلبي..

مع أن هذا دعاء كشف الهم والغم والدَّين. إلا أن ما يلفت الانتباه حقيقةً هو أن هذا الدعاء لم يكن مباشرة في طلب كشف الهمِّ، وإنما الدعاء بأن يكشف الله تعالى الهمَّ بالقرآن حين يجعله ربيع القلب، ونور البصر، وجلاء الحزن، وذهاب الهمِّ، فكل الضمائر تعود للقرآن، كما أن الوسيلة العظيمة والثناء الأعلى الذي رفع به هذا الدعاء هو أسماء الله تعالى الحسنى واسمه

الأعظم، وكل ذلك لأجل أن يجعل القرآن جلاء الحزن إلى آخره..

فكيف يكون القرآن ربيع القلب؟ ومتى؟

وكيف يكون نور البصر؟ ومتى؟

وكيف يكون جلاء الحزن؟ ومتى يصبح كذلك؟

وكيف يكون القرآن ذهاب الهمِّ؟ ومتى؟

المعنى الثالث: أهمية هذا الدعاء وعمومه.

الشاهد: ينبغي لمن سَمِعَهُنَّ أن يتعلَّمَهُنّ..

ليس هذا الدعاء مقتصراً على وجود الهم، لكن إذا وجد الهم كان هذا الدعاء له، وكيف يضيق واسعٌ لا حد له؟!

ألم يجعل الطلب في هذا الدعاء أن يكون القرآن ربيع القلب،ونور الصدر، وجلاء الحزن، وذهاب الهم؟ ومن يستغني عن أن يكون القرآن ربيع قلبه ونور صدره؟

ومَن أحوج مِن حامل القرآن لهذا الدعاء بل لهذا القلب؟

إنه كدعاء الخروج من البيت كم يحتاجه المرء في حياته: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»(١)(٢).

(١) رواه الترمزي ٣٤٢٧ وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ١٥٢

(٢) بيان الحديث العاشر هنا جاء مختصًرا جدًا فهذا يناسب طريقة هذا الكتاب وقد بينته بيانًا أوسع من هذا بكثير في كتبي الجديدة عن القرآن ومنها كتاب (عودة القرآن العظمى) الذي سيصدر بإذن الله قريباً.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهلَ القرآن: اللهَ اللهَ في كتاب الله، فهو شفاء للقلوب والأبدان، من الأمراض الحسية والمعنوية، الظاهرة والباطنة، سلوا اللهَ أن يكشف همكم بالقرآن، حتى يصير القرآن حقًا ربيعًا لقلوبكم، ونورًا لأبصاركم، وجلاءً لأحزانكم، وذهابًا لهمومكم وغمومكم، واستحضروا المعاني العظيمة التي يحملها هذا الحديث، والبشرى التي يزفُّها النبي ﷺ فيه ..

ألم يقل النبي ﷺ في أوله: ما قال عبدٌ قَطُّ إذا أصابه هم أو حزن ... إلخ، وقال في آخره إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحًا ..؟؟

فالزموا هذا الدعاء وكرروه، ولا يَعْجَلَنَّ أحدُكم في دعائه، فربُّنا جلَّ جلاله لا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أحد، وهو سبحانه يحب المُلِحِّينَ في الدعاء.

الحديث الحادي عشر

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ أَخْبَرَهُ، أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يُحَدِّثُ: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنِّي أَرَى اللَّيْلَةَ فِي المنَامِ ظُلَّةً تَنْطِفُ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ، فَأَرَى النَّاسَ يَتَكَفَّفُونَ مِنْهَا بِأَيْدِيهِمْ، فَالمستَكْثِرُ وَالمسْتَقِلُّ، وَأَرَى سَبَبًا وَاصِلًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَرَاكَ أَخَذْتَ بِهِ فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَعَلَا، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ بِهِ، ثُمَّ وُصِلَ لَهُ فَعَلَا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، بِأَبِي أَنْتَ، وَاللهِ لَتَدَعَنِّي فَلَأَعْبُرَنَّهَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اعْبُرْهَا» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا الظُّلَّةُ، فَظُلَّةُ الإِسْلَامِ، وَأَمَّا الَّذِي يَنْطِفُ مِنَ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ، فَالْقُرْآنُ حَلَاوَتُهُ وَلِينُهُ، وَأَمَّا مَا يَتَكَفَّفُ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ فَالمسْتَكْثِرُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالمسْتَقِلُّ، وَأَمَّا السَّبَبُ الْوَاصِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَالحَقُّ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، تَأْخُذُ بِهِ فَيُعْلِيكَ الله بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِكَ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَيَعْلُو بِهِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَيَنْقَطِعُ بِهِ، ثُمَّ يُوصَلُ لَهُ فَيَعْلُو بِهِ، فَأَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ أَصَبْتُ أَمْ أَخْطَأْتُ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا، قَالَ: فَوَاللهِ يَا رَسُولَ الله، لَتُحَدِّثَنِّي مَا الَّذِي أَخْطَأْتُ، قَالَ: لَا تُقْسِمْ»[1].

(١) رواه البخاري ٦٦٣٩، ومسلم ٦٠٦٦.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

كأنَّ رؤى المنامات تتفجر من واقع الاهتمامات، بل من مستقبل الغايات، ولولا أن الله أخبرنا أن بعض الرؤى رسائل الله لبعض خلقه يراها الرجل أو تُرى له، فيفهمها هو أو تُعبر له لقلنا إنها المعجزة الإلهية الممتدة إلى آخر البشرية، تطرق الأحياء من عالم الغيب إذا غابت عقولهم في عالم المنام..

رسائل تبعث لفلانٍ عن طريق المنام من غير أن يُسَمَّى صاحبها رسولًا فأحسنوا تلقيها فلعلها تكشف غيبًا، أو تنجي هالكًا، أو تحمل رزقًا، أو تبعث تهديدًا.

ألم يقل النبي ﷺ: «الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِن النُّبُوَّةِ»[1].

لكن أن تكون الرؤيا بهذهِ التفاصيل الدقيقة، والأحداث الكبيرة كما رآها هذا الصحابي المبارك وبهذا السمو... فإن هذا شيءٌ عجيبٌ يستحق الشرح والتدقيق.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: القرآن أحلى من العسل.

الشاهد: «تنطف السمن والعسل».

لو كان مذاقٌ أحلى من العسل وملمس أليَن من السمن عند مَنْ كان يحدثهم رسول الله ﷺ لَذَكَره لهم الصحابي الجليل، ولو كان هذا السمنُ والعسلُ قليلًا على قدر الناس ومأخوذاً من خلايا النحل وأثداء البهائم لكان حقيقًا بالناس أن يهيموا به حبًّا وتعلقًا وتطلعًا، فكيف وهذا السمن والعسل

(١) البخاري، باب: الرؤيا الصالحة. رقم ٦٩٨٩

ليس عن ضَرْع بهيمة ولا بطن حشرة، إنما هي ظلة بين السماء والأرض، فلا عشب ولا فرث ولا دم ولا قيئ، إنما هو الخير الطائف المقرب، والنقاء، واللذة، والصفاء، والفضل الفائض والمائدة الممدودة بين الأرض والسماء.

ولو كانت هذهِ الظلة سائرة طائرة في جو السماء لكان حَرِياً أن تتعلقَ بها قلوبُ الناسِ، وتَشْرَئِبَّ لها أعناقهم، فكيف وهذه الظلة قريبة في متناول أيدي الناس كما في الرواية والرؤيا؟

وكيف إذا كانت هي التي «تنطف» بنفسها ولا تُعصر وتُستوقف؟! إنها تعطي كل طالب ولا تنفذ.

المعنى الثاني: عمر الأمة وقوتها.

الشاهد: فالقرآن حلاوته ولينه: سبحان ربنا الذي أرى القرآنَ أولئك الرجالَ هكذا.. كما هو في قلوبهم..

ورضي الله عن أبي بكرٍ، فأول ما وقع من تفسير الرؤيا في قلبه لهذه الغمامة التي تنطف السمن والعسل هو: القرآن.

وحريٌّ برجالٍ يكون مأخذهم السمن والعسل من الغمام أن يزدادوا قوةً ومناعةً، وأن يعمَّروا طويلًا.

وحريٌّ بأُمة يكون رزقها سمنًا وعسلًا من الغمام أن لا يقدر أحدٌ عليها لعظيم قوتها، ورفعة قدرها كما لا يقدر أحدٌ على قطع رزقها... كيف وقد قال الله عَمَّن دونها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (سورة المائدة).

المعنى الثالث: دعوة للمزيد.

الشاهد: «تنطف السمن والعسل».

إنها دعوة لقارئ القرآن أن يزيد من قراءته، من التفكُّر فيه وفي آياته، ودعوة للمتفكر فيه أن يزداد عملًا ودعوة، ودعوة للعامل به أن يزيد عملاً ولا يملّ، ودعوة للحاكم به أن يزيد استمساكاً بحكمه وإقامة لعدله.

إنه إعلانٌ أن خير هذه الظلة لا ينقص بأخذ الناس منها مهما كَثُروا أو أكثروا الأخذَ منها، فهو ليس ضرع لبن أو قيء نحلة، فلا ينبغي الخوف من النقصان، ولا إيثار الإخوان، فهي ظلة القرآن السهلة القريبة التي تطوف كل مكانٍ وكل زمانٍ..

إنه إظهارٌ لعظيم حرمان من كانت هذه الظلة تطوف على رأسه وفي متناول يديه، ثم هو لا يأخذ منها، إِذْ هي تنطف بنفسها السمن والعسل.

المعنى الرابع: سعادة الحكم بالقرآن

الشاهد: فأراك أخذت به فعلوت....

حريٌّ بأمةٍ تأخذ السمن والعسل من ظلة فوق رأسها أن تصبح حياتُها سمناً وعسلًا كلها، فالعسل بحلاوته أبعد ما يكون من المرارة، والسمن بلينه أبعد ما يكون عن الخشونة والغلظة..

المعنى الخامس: لايشغلكم خطأ أبي بكر في تعبير بعض هذه الرؤيا، فإن الذي خطّأه رسول الله.

الشاهد: أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً.

إن النبي ﷺ لمْ يبينْ خطأَه، ولو كان خطؤه مضرًّا في التعبير أو مضرًّا بالأمة لما - واللهِ - سكت رسول الله ﷺ، فإن الجرأة على خطأ أبي بكر جرأة على رسول الله ﷺ، وماخطأُ أبي بكرٍ في هذهِ الرؤيا إلا رحمة بالأمة.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهلَ القرآن: عندكم السمن والعسل فأعطوا الناس كفايتهم، فليس من طبيعة الغمام إلا الهطول بالحياة على البلاد وتحويل الموات إلى الحياة.

يا أهلَ القرآن: إذا كان أكبرُ أمانيِّ من أقفرت حياتهم هو الماء من الغمام، فإن غمامكم ينطف السمن والعسل، وإذا كان غاية مقصد الناس من ماء السماء أن يشربوا ويسقوا الزرع ليزهر ويثمر، ويسقوا الدواب لتسمن وتحلب، فإن خلاصة الزهر والثمر عندكم هو العسل، وخلاصة السِّـمَن هو السَّـمْن، وأنتم يا أهل القرآن عندكم الغمامة التي تنطف هاتين الخلاصتين السمن والعسل.

يا أهلَ القرآن: كل حامل للقرآن منكم ينبغي أن يكون ظلة تنطف على الناس السمن والعسل.

يا أهلَ القرآن ومحبيه: لا تحسبوا أن هذه الرؤيا انتهت أو انتهى تعبيرها، فإنها لا تزال في طور التعبير.. وإنها لمستمرة.

لا تزال الغمامة تسير وتنطف ما بين السماء والأرض ولم تنفد ولم تتوقف، ولا يزال الحبل ممدوداً من السماء لمْ يُرفعْ بعد..

ولَكأنِّي بالرجال الآكلين الشاربين من الغمامة ما زالوا يأخذون ويتلذذون، لكن المستكثر قليل من قليل كما قال الله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ (سورة الواقعة).

أما الحبل فكأني به مهجوراً لا أحدَ يقتربُ منه..

فالغمامة لعامة الناس، وأما الحبل فلولاة الأمر، حتى في عهد النبي ﷺ ومَن بعدَه..

ألم تر كيف رأى الصحابي الناس عند الغمامة يتكففون منها بأيديهم، بينما لم ير

عند الحبل إلا رسول الله ﷺ ورأى من بعده رجلًا واحداً، ثم رجلًا من بعده، ثم ثالثاً من بعده، وهم الخلفاء من بعده..

فأي خليفة أو أمير من بعدهم يريد أن يعلوَ فليس له إلا أن يأخذ بهذا الحبل.. وإلا فسينحط إلى أسفل سافلين.

هب أن هذا الحبل حقيقة يراه الناس شاخصًا بالعين.. أفيكفي مجرد النظر إليه أن يعلوَ الناظر إلى السماء؟؟

أيكفي التمسح والتبرك بالحبل به ليعلوَ المتمسح به..

أيكفي الانتساب له ليعلوَ به..؟!

أتكفي الأمانيُّ الطموحةُ والنياتُ الطيبةُ ليعلو..

أم لابد من أخذٍ كأخذ رسول الله ﷺ، ولابد من أخذٍ قويٍّ كأخذ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما..

وإلا فهو الانقطاع والتِّيه والضياع إلى أن يعود الناس لذلك الحبل فيأخذوا به، وللغمامة فيتناولوها بأيديهم..

الحديث الثاني عشر

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَنْهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ»[1].

(١) رواه مسلم ١٨٦٩، والبخاري ٢٨٢٨ بنحوه دون الجملة الأخيرة.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

أيُّ كنزٍ خُصَّ به رسولُ اللهِ ﷺ أعظمَ مِن هذا القرآنِ الكريم؟

أي شيءٍ أثمن في أعين أصحاب رسول الله ﷺ من صحيفةٍ مكتوبٍ فيها القرآن؟

أسئلة كانت تتردد في أذهان أولئك الرجال.

ونحن اليوم في هذا الأمد البعيد، وقد انتشرت المصاحف في كل مكانٍ، لن نستطيع أن نتفهم هذا النهي حقيقةَ الفهمِ ما لم نتصورْ محبة الصحابة لقطعة جلدٍ مكتوبٍ فيها كلام الله، أو ورقةٍ أو نحوها.

هل أسافر بما عندي من رُقَعٍ مكتوب بها القرآن إلى أرض العدوِّ؟

أم أفارقه طوال فترة سفري التي رُبَّما تطول أشهرًا كما هو معتاد؟

كيف أصبر على عدم النَّظر في القرآن ليومٍ واحدٍ ؟. فكيف أصبر إذًا لأكثر من ذلك؟

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: حرز القرآن.

الشاهد: «ينهى أن يسافَر».

إذا كان النبي محمد ﷺ قد نهى المسلمين عن كتابة السُّنَّة -في بادئ الأمر- حتى يُحفظَ القرآنُ جيدًا ولا يختلطَ بأحاديث رسول الله ﷺ ثم أَذِن إذنًا خاصًّا لبعض المسلمين، ثم أَذِن إذنًا عامًّا بكتابتها، والمسلمون أحرص ما يكونون على حفظ القرآن والمحافظة عليه، ومع هذا فإن مِن حمايةِ النبي ﷺ للقرآن أنه لم يأذن لهم بكتابة السُّنَّة إلا كما ذكرنا... أفلا ينهى عن تمكين الأعداء من القرآن؟ فربما إذا وصل المصحف إليهم شَوَّهوه أو حَرَّفوه ثم بلغوه قومهم على أنه القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ

فكان ذلك سبباً للصَّدِّ عن سبيل الله كما فعل بعض المستشرقين، فيضل القوم بسبب مَنْ حصل على نسخةٍ أو صفحةٍ مُحرَّفةٍ، وغايتنا نحن إبلاغهم القرآن كما أُنزل.

المعنى الثاني: في الحديث الحثُّ على حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ووجه الدلالة أننا مكلفون بتبليغ القرآن إلى الكافرين ودعوتهم إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة المائدة: ٦٧)، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ (سورة النحل: ١٢٥). وفي هذا الحديث نهيٌ عن حمل المصحف إلى أرض العدو فإذا لم نحملْه إليهم ولم نحفظه في صدورنا فكيف ندعوهم إليه، ونحثهم عليه؟ ومن هنا يتبين أهمية حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب.

أما اليوم فقد أصبح القرآن يُطبع في أرض العدوِّ، كما أن القرآن ثبت ولا نخاف تحريفه، وهو موجود في مواقع الشبكة العنكبوتية بين أيدي المسلمين والأعداء على حدٍّ سواء، ومع هذا فيبقى الحكم على ما هو عليه، فالأصل في أرض العدو أن لا يحمل لها القرآن لِعلَّة أنه «عدو» فإذا أُمِنت العداوة وأُمِن العدوانُ فالحكم يدور مع عِلَّته..

والرجل الذي لا تُخشى منه عداوةٌ ويُرجى منه هدايةٌ - بإذن الله - يعطى من القرآن، إذ الغاية هي الهداية، والأفضل أن يعطى «معاني القرآن» كما هي الطبعات للناطقين بغير العربية، وذلك لاستحالة ترجمة القرآن.

ولا يكفي أن نتوقف عند قوله: «إلى أرض العدو»، فربما سافر به إلى رجلٍ مسلمٍ في أرض العدو أو رجل قريب محب للإسلام، ولذا جاءت الزيادة المهمة تعلل الحكم بقوله: «مخافةَ أن يناله العدُوُّ» فإذا لم يَنلْه العدو فلا بأس، بل ربما استحب وربما وجب..

❁ ثالثاً: التنادي:

إذا كان النبي ﷺ قد نهى عن حمل المصحف خشية أن يُمسَّ، فكيف يُمَسُّ القرآنُ في بلاد الإسلام..؟!

بئس حَمَلَةُ القرآنِ نحن إذا مُسَّ القرآنُ بأيِّ نوع مساسٍ دون أن يكون له مِنَّا حماية ووقاية من كل عدوانٍ وتهديد..

فمسُّ القرآن بأي عدوانٍ مسٌّ لنا، والإساءةُ له إساءةٌ لنا وأكثر..

يبقى القرآن ونذهب جميعًا..

يا حَمَلَة القرآن، لا ينبغي أن ننتظر حتى يمس القرآن بسوءٍ في أرض الكفر، ولكن يجب أن ننشئَ صُرُوح القرآن في بلاد الكفر، ونخرج من أبناء تلك البلاد مَنْ يحمل القرآن فيها لأهلها، فلا نحتاج بعد ذلك أن نحمل القرآن إليها كدعاة من خارجها، بعدما غرسنا الدعاة في أرضها من أهلها.

يا أبناءَ القرآن: لا تُوكِلوا حمايةَ القرآن لبشرٍ، فصاحب الشرف يختاره الله لحماية كتابه، والذَّبَّ عن كلامه..

يا أبناءُ القرآن: ارحلوا حيثما شئتم.. لكن إيَّاكم أن ترحلوا إلى مكانٍ وليس معكم زادكم وهو القرآن.. فأنتم حَمَلته وهو نوركم الذي تمشون به في الناس..

الحديث الثالث عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِن الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

(١) رواه البخاري ٤٦٩٦، ومسلم ١٥٢.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

كلُّ فَتْحٍ مِنْ وراء هذا القرآن.. كل نَصْرٍ بسبب هذا القرآن.. فُتُوح الهداية لقلوب العباد، كفتوح المدن والبلاد.. كلها بالقرآن.. فهو الميزة العظمى لهذهِ الأمة على كل الأمم، بل هو الميزة العظمى للنبي محمد ﷺ على كل الأنبياء.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: بقاء المعجزة.

الشاهد: «وإنما كان الذي أوتيت وحيًا..».

القرآن أعظم المعجزات وأنفعها لاشتماله على الدعوة والحجة ودوام الانتفاع به إلى آخر الدهر، فلَمَّا كان لا شيءَ يقاربه فضلًا عن أن يساويَه كان ما عداه بالنسبة إليه كأنْ لمْ يقعْ...

مع أن كل معجزة من معجزات الأنبياء كفيلة - عند الإنصاف - أن يؤمن عليها البشر إلا أن معجزاتهم عليهم السلام ذهبت بذهاب أصحابها، وذلك ما جعلها تنقطع عن كونها معجزة أو حجة أو هداية، اللهم إلا كونها خبرًا من أخبار الإعجاز والهداية، حتى جاء القرآن وبقي ولا يزال إلى يوم القيامة، إعجازاً وهدايةً عمليةً باقية ينقطع البشر ولا تنقطع، مات النبي محمد ﷺ ولم تذهب ولم تُرفع، ولم ينفذ إعجازها، ولذا كان طبيعيًّا أن يكون النبي محمد ﷺ أكثرهم تابعاً.

المعنى الثاني: بلّغ الرسالة ومعك المعجزة.

الشاهد: «وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله..».

ما المراد بوحيٍ أوحاه الله؟

أهو جبريل أم هو الكتاب أم أنه شيءٌ آخر؟

فإذا كان المراد به جبريل فقد نزل على كل الأنبياء، وإذا كان مجرد نزول الكتاب فقد أوتي كل الأنبياء كتابًا، المراد هو أن معجزته هو القرآن الذي ما كان إلا وحيًا أوحاه الله إلى نبيه ﷺ وتسمية القرآن بالروح واردة في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (سورة الشورى: ٥٢).

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ (سورة فاطر: ٣١).

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٩).

قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ (سورة طه: ١١٤).

ولئن صدق على الكتب السابقة بأنها وحي من الله تعالى فإنها لا تحمل صفة الإعجاز الأبدي، كما أنها وحي باعتبار نزولها الأول، ونزولها الأول هو الأخير كذلك، فقد نزلت مرة واحدة جملة واحدة، أما صفة الوحي بالنسبة للقرآن فإنها ملازمة لكل نجم ينزل به جبريل عليه السلام، فعملية الإيحاء مستمرة طوال نزول القرآن وطوال حياة النبي ﷺ وحتى في أية ساعة من ليلٍ أو نهارٍ.. سَفَرٍ أو حَضَرٍ.. وبذا تبقى كل مرة ينزل فيها الوحي بالقرآن مهما كان عدد الآيات كأنها كتاب بأكمله من الكتب السابقة من هذه الحيثية، ولذا فإن كل مَنْ أخذ مِنَ القرآن فقد أخذ من الوحي نفسه بمقدار ما أخذ من القرآن، وبهذا يصبح الوحي - على عظمته - لهذهِ الأمة أمرًا عامًّا، وفضيلة شاملة لكل مؤمن بالنبي محمد ﷺ... بينما الكتب الأخرى جميعًا قد أصابها التغيير

حتى لم يعد يعرف أَعْلَمُ الناس بها ما الذي أوحاه الله، وما الذي غيره البشر تحديدًا، هذا على فرض أنها لم تنزل مكتوبةً جاهزةً في ألواحٍ وصحفٍ..

المعنى الثالث: ضرورة الإفادة من هذهِ المعجزة.

الشاهد: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

الإخبار ببقاء هذه المعجزة إلى يوم القيامة فيه تمكينٌ لكل مسلمٍ من استخدامها، وحث لكل مسلم على استخدامها، فكأن كل مسلم في دعوته بالقرآن نبي يدعو إلى الله بمعجزةٍ، كيف لا وكل واحدٍ منهم عنده نفس الوحي الذي أوحاه الله لنبيه ﷺ، ومن ثَمَّ كان العلماءُ السابقون ورثة الأنبياء إلى ما قبل بعثة النبي ﷺ وأصبح علماؤُنا ورثةَ جميع الأنبياء؛ لأنهم بعد خاتم الأنبياء وسيدهم ﷺ، وبذا كتب الخلود لهذهِ الأمة أبدًا، وذلك لبقاء معجزتها أبد الآبدين.

الإخبار بأن كل معجزة من المعجزات السابقة كفيلة بأن يؤمن عليها البشر، والإخبار بأن القرآن أعظم المعجزات على الإطلاق إنما يعني كذلك أن كل مسلم قادر بحمله هذا القرآن أن يجعل البشر يؤمنون جميعًا – لو أنصفوا –؛ لأن عنده الوحي وهو هذا القرآن الذي هو أعظم من كل معجزة من المعجزات التي كل واحدة منها كفيلة بأن يؤمن عليها البشر، فكيف والقرآن أعظم من جميع المعجزات مجتمعة؟

فكم يُقصِّر المسلمون بعدم الإفادة من هذه المعجزة في هداية البشر؟!

إذا كانت معجزة كل نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام من التأثير في الحجة والإعجاز للبشر ما تكفي لو عرضت على كل البشر وأنصفوا لآمنوا جميعًا..

فكيف بمعجزات النبي ﷺ الحسية التي كانت من الكثرة بحيث غطَّت معجزات الأنبياء جميعًا – فيما نعلم –.

لكن كل معجزات الأنبياء الحسية أصبحت أخبارًا مجردة لا تنفع إلا مَنْ آمن بنبينا ﷺ، أما غيره فإنها خبر قابل للتصديق والتكذيب، وربما كان التكذيب الأغلب.. حاشاهم عليهم السلام جميعًا.

ليبقى القرآن وحده من بين معجزات الأنبياء جميعًا يفعل فاعليته بوجود من أنزل عليه ﷺ وبعد موته إلى الأجيال المتعاقبة..

وهكذا كان أصحابه رضي الله عنهم، في عهده وهو حي ﷺ وهم بعيدون عن عينه يدعون بهذا الوحي أقوامَهم والناسَ أجمعين، كما كان يفعل ذلك ﷺ بحضورهم وبغيابهم على حدٍّ سواء مع الإنس ومع الجن.

❁ ثالثاً: التنادي:

إلى أيِّ أُفُقٍ من الغايات يريد أن يرفعَك رسولُ الله ﷺ - يا صاحبَ القرآن -..

إنك داعية لكل البشر.. إنك قادر على أن تجعل كل البشر - بإذن الله - يؤمنون؛ لأن كل معجزة منفردة من معجزات الأنبياء كفيلة أن يؤمن عليها البشر، كل البشر..

وأنت عندك القرآن الذي هو أعظم من معجزات كل الأنبياء.

يا صاحبَ القرآن: أنت مغبون إن لم يكن الفئام من الثَّقَلين أتباعك يوم القيامة..

إذ كيف يكون معك القرآن ولا تكون الأكثرَ تابعاً..

كن داعيةً كقدوتك الذي قال له ربّه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠٨).

فإن لم تكن كذلك فراجعْ نفسَك وانهضْ من جديدٍ قبل أن تقوم قيامتك..

الحديث الرابع عشر

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضِيَ اللهُ عنه أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «قَالَ اللهُ تعالى: إِنَّمَا بَعَثْتُك لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الماءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ»[1].

(١) صحيح: رواه مسلم ٢٨٦٥.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

إخبار خطير لرسول الله ﷺ في هذا الحديث يعلنه في خطبته العامة، ويذكره كحديث قدسي يرويه عن ربه عز وجل... يخبر رسول الله ﷺ عما قال له ربه سبحانه عن صبغة حياته بعد بعثته.. إنها محصورة في الابتلاء.. ابتلاؤك...وابتلاء بك..!

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: مدار حياة أهل القرآن.

الشاهد: «لأبتليَك وأبتليَ بك».

هذا هو حامل القرآن الأول، وهذا موعود الله له: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك... وأنزلت عليك كتابًا» فَلَمْ أبعثْكَ وأُنزِلْ عليك كتابًا لأريحَكَ من الابتلاء، لا!

ولمْ أجعلْ هذا الكتابَ حِرْزًا لك من الابتلاء، لا!

كما لمْ أجعلْ هذا الكتابَ قراطيسَ تتزين بها، أو تسترزق بها، أو تترنم بها دونما تكاليف.. لا!

وتبقى هذه السُنَّةُ سارية في كل مَنْ آتيتُه الكتابَ وسار على هَدْيك، محصورةً بحرف الحصر والقصر «إنما» «لأبتليك وأبتلي بك» فكأن الابتلاء لازمٌ من لوازم حياتك الجديدة، بل مدار حياتك محصورة بين هذين، وكأن ما واجهته قبل مجيء هذا الكتاب لا يعدُّ بلاءً ولا فتنةً!!

إنما الابتلاء بعد مجيء هذا القرآن، ولزوم هذين الاثنين: «البلاء لك وبك» كلزوم الجناحين لطيران الطائر، فليس الأمر على الاختيار كما لو قال: أبتليك أو أبتلي بك، إنما جعل حدوث الاثنين متلازماً بعضهما للبعض الآخر.

المعنى الثاني: كيف يكون هذان الابتلاءان متلازمين.

الشاهد: «لأبتليَك وأبتليَ بك».

الجواب - والله أعلم - أن في هذا الكتاب الكريم تكاليفَ كبيرةً لك، وهي تقتضي تضحياتٍ كبيرةً منك، وأحيانًا تكاليف ثقيلة عليك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (سورة المزمل: ٥).

وكما أن في هذا الكتاب الكريم تكاليف كبيرة لك فإن فيه تكاليف كبيرة لغيرك، وبما أنك تبلِّغ هذا الكتاب لغيرك، فالناس بالنسبة لك إما طائع لك وإما عاصٍ، وعليه يصير الناس إلى الجنة أو إلى النار كما في الحديث عن النبي ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1].

لكن ابتلاءك بعد البعثة سيكون في مرحلته الأولى أشد وإن لَمْ تَخْلُ بقية حياتك من ذلك، كما سيكون الابتلاء بك في المرحلة الثانية من حياتك أشد وإن لَمْ تَخْلُ حياتك الأولى منها، وذلك لعموم فائدة الترتيب في قوله: «وإنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك».

المعنى الثالث: المثبِّت عند الابتلاء.

الشاهد: وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء.

مَنْ تأمَّل هذا الحديث وجده من شقين؛ الأول: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك»، والثاني: «وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظان» والتعقيب بهذا الشطر على الذي قبله عجيب في الحكمة، ذلك أن الابتلاء - والله أعلم - سبب للزلزلة عن المبدأ والحيدة عنه، وسبب لذهاب

(١) «رواه البخاري» في صحيحه - رقم٦٨٨٩

الحواشي وأحيانًا الأسس كما ذهبت أسس الأنبياء ومصادرهم من قبل من معجزات وكتب وما إلى ذلك على نار ابتلاء أصحابهم وأتباعهم، أما أنت يا محمد فكتابك من الثبات بحيث لا يزيله الماءُ، ولا النارُ..

وذلك لأن الله -تعالى- حفظه في صدور أهله وخاصته، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٩).

وأيًّا كان المقصود من الحديث فإن الحقيقة هي أن هذا القرآن غير قابل للزوال عن الوجود بالكليَّة بالإغراق أو بالإحراق أو التحريف أو التغيير، ومع قُوَّة ثباته ورسوخه فإنه من اليسر والمرونة وسهولة التكيف بحيث تقرؤه نائمًا ويقظان.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهلَ القرآن:

هنيئًا لكم هذا البقاء وهذا الثبات والحفظ، فدليل حفظكم حفظ الكتاب المحفوظ في قلوبكم، لا تغيره مظاهر الطبيعة التي تغير كل شيء، ولا تزيله عوامل التعرية التي تَعرو كلَّ شيء، حتى الصخر الأصم..

بل أنتم آية حفظه العظمى، وإن زالت كل خزائنه التي حفظ فيها، وإن ذهبت الصحف التي كتب فيها، وإنها - والله - لم ولن تزولَ أبدًا، فمن يحرِّفه وأنتم حفظته..؟!

فأنتم خزنته الحقيقيون، وأَمَنَته المتابعون..؟!

فإياكم أن تغفلوا لحظةً أو تتهاونوا بتغيير لفظةٍ.. أو حركة على لفظةٍ... فتنبهوا والزموا اليقظة فإنكم إن تساهلتم مع هذا الإمام في صلاته الجهرية حين لحن في القراءة، وذاك حين يخطئ، والثالث، والرابع، وتساهلتم مع هذا القارئ وذاك، وتساهلتم مع هذا الأعجمي في لحنه وذاك البدوي، وهذا المسئول وذاك الوالد والأخ الأكبر، وهذا الذي قرأ بِلُحُون لهجات المواطنين أو اللحن العرفي على حساب القرآن، فهذا التساهل عنوان التخلي عن حراستكم ومهمتكم، وأخشى أن يكون عنوان تخلي الله عنكم!

لا تتساهلوا في تصحيح لحنٍ، ولا تحريفٍ ولو بحسن نِيَّةٍ، فهؤلاء وأمثالهم أحق أن يعلَّموا، وإنَّ مَنْ تَساهَلَ في هذا تساهلَ في أكبرَ منه، إنها وظيفة الحراسة، بل هو المبدأ، فلا للتنازل عنه أبدًا..

الحديث الخامس عشر

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَامْرَأَةٌ تُعَالِجُهَا أَوْ تَرْقِيهَا، فَقَالَ: «عَالِجِيهَا بِكِتَابِ الله»[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: الْعَسَلُ وَالْقُرْآنُ»[2].

(١) رواه ابن حبان ٦٠٩٨، قال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين، وكذا صححه الألباني رحمه الله في الصحيحة ١٩٣١.

(٢) ابن ماجه، رقم ٣٤٥٢، والحاكم في المستدرك ٧٤٥٣ وصححه ووافقه الذهبي

❁ أولًا: مفتاح الفهم المعايشة:

هذا بيتُ رسولِ الله ﷺ مِن داخِله..

بيت رسول الله ﷺ، وأم البيت مريضة تعالَج

دخل رسول الله ﷺ فرأى ما رأى.

إنه موقف.. وكانت عادة رسول الله ﷺ أن يعلمهم من خلال المواقف، حيث يثبت الحكم، وينصح الناس ويزكيهم، ويصنع المنهج للأمة كلها من خلال الموقف، ولو كان موقفاً صغيراً.

المريض مفطور على طلب الشفاء والعافية، فهو يتطلب العافية من كل مكانٍ وبأي طريقٍ، وبينما المريضة عائشة رضي الله عنها سائرة في هذا السبيل إذ بالنبي ﷺ يقرّها على ذلك ويحدد لمعالجتها طريق العلاج بالقرآن.

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: أثر القرآن ذاتي.

الشاهد: «دخل عليها وامرأة تعالجها».

هذه عائشة رضي الله عنها زوجُ رسول الله ﷺ تعالجها امرأة بالقرآن العظيم..

عائشة التي عند رسول الله ﷺ ولو قرأ عليها أو نفث عليها لَبَرِئَتْ - بإذن الله -..

عائشة التي نزل القرآن على رسول الله ﷺ وهو في بيتها وربما في حَجْرها..

إنه درس بليغ له دلالات عظيمة منها - والله أعلم - أن عظمة هذا القرآن ذاتية، فأثره لا يرتبط بمن أُنزل عليه ﷺ، ولا يتوقف على حياته ﷺ، ولا حضورهِ ﷺ، فهو عام لكل العالمين، وشفاؤه لكل المؤمنين، وباقٍ إلى أبد الآبدين...

ومنها أن الله يرفع به أقوامًا لم يكن لهم أن يرتفعوا بغيره..

كما رفع به هذه المرأة فأصبحت ترقي بالقرآن أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ورفعها الله حين أجازها رسول الله ﷺ بالرقية، وحدد لها كتاب الله.

فلا علاقة للرقية أن يرقيَ المفضولُ الفاضلَ، والمفضولةُ الفاضلةَ، وذلك لأنَّ المرقيَّ به أفضلُ من المفضول والفاضل، وفضله على الفاضل كما هو على المفضول، إنه القرآن، فهو أفضل من كلِّ فاضلٍ، فالعبرة بالقرآن، بمعنى أن الشفاء محقق بالقرآن متى ارتقى إليه قارئه، وإلا فأين تلك المرأة من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ورضي عن تلك المرأة الصحابية.

ثم إن قوله ﷺ: «عَالِجِيهَا» يُفهِم أن القرآنَ علاجٌ، وأنَّ الراقيَ مُعالِجٌ، وأن هذه المرأة عارفة للعلاج بالقرآن، ولذا طلب منها النبي محمد ﷺ أن تقتصر في علاجها على القرآن.

المعنى الثاني: فضيلة لأهل القرآن.

الشاهد: عالجيها بكتاب الله.

فضيلة يرتقي لها أهل القرآن حيث يتفضَّلون على غيرهم من المرضى المسلمين برقيتهم وعلاجهم.

«عالجيها بكتاب الله» فكتاب الله قَطْعًا علاج لكن عليك أن تُحْسِني معرفة هذا العلاج.

المعنى الثالث: الاهتمام بأمر العلاج والرقية

الشاهد: عليكم بالشفاءين

لابد لأهل القرآن أن يجعلوا في مناهجهم تعليم الرقية بالقرآن والسُّنَّة ليأخذ الطلاب المناعة من الزيغ في هذا الجانب، كيف وقد زاغ البعض هداهم الله..

ليعلم هؤلاء أن هذا العلم متعلقٌ بالقرآن الكريم الذي هو منهج حياتهم ونور صدورهم وتخصصهم، كما يعلموا أن القراءة للرقية سنة، وأنهم لن يستغنوا عنها أبدًا لأنفسهم ولعيالهم ولصحبهم، وللآخرين، والنبي ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن ينفعَ أخاه فليفعل»[1]..

كيف وقد رقى النبي ﷺ وأمر بالرقية، وأقرَّها، وعلَّمها، فهي سُنَّةٌ ثَابتةٌ.

ولا تعني ممارسة الرقية أن يفتحَ الحافظُ الراقي لنفسه محلًّا أو موقعًا ويترك طلب العلم والتعليم وتحفيظ القرآن والإجازة فيه وما إلى ذلك من حقوقٍ، ونحن لا نَعِيبُ على مَنْ فَتح له في علم الرقية بابًا، ويكون للناس مرجعًا، ولكنَّا نَعِيبُ الطرق غير الشرعية، كما نعيب تضييع حقوق القرآن الأخرى على حساب هذا الأمر..

المعنى الرابع: اليقين بأن القرآن علاج وشفاء.

الشاهد: عالجيها بكتاب الله.

يا أهلَ القرآن.. اليقينَ اليقينَ بهذا القرآن.. فَلْتمارسوا اليقين بالقرآن عملًا ومواقف، وليعرف الطلاب أنَّ لحفظهم كتابَ اللهِ مَنَاحِيَ شرعيةً عمليةً، وأن له تأثيره في حياتنا، وفي صحتنا ومرضنا، وأن علاقتنا به لاتقتصر على القراءة والتلاوة فقط، بل في كل جوانب الحياة.

اقرءوه وارقوا به وكلكم يقين أن هذا المرض زائل؛ لأنه لايقوى أمام هذا الكلام، فالله قد جعله شفاء... وقضى بأنه شفاء.. فإذا جاء الشفاء زال المرض..

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (سورة الإسراء: ٨٢).

(١) «رواه مسلم» حديث رقم ٢١٩٩

احملوه إلى الدنيا ويقينكم أَنْ ليس في الوجود مَنْ يحمل مثل هذا الذي تحملونه للناس.

احملوه إلى الأعداء وتقدموا، فيقينكم أن ما عندكم نور، وأن عدوكم ظلمة، وأن الظلمة مهما اشتدَّ سوادُها فلن تستطيع أن تخفي نقطة النور، وأن النجوم في السماء أعظم ما تكون إنارةً وتوهجاً حين تشتد ظلمة الصحراء.

احملوه ويقينكم بأنكم إنما تحملون الكلام الذي يقول الله فيه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ (سورة المائدة: ١٥).

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧).

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٢).

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (سورة الحديد: ٩).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (سورة النساء: ١٧٤).

هذه هي الحقيقة: القرآن نور، وضده الظلمة..

بل الحقيقة أعظم من ذلك، فما هذه إلا صورة لا تمثل مِنَ الحقيقة إلا شبهها..

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهل القرآن: اقرءوا القرآن واعملوا به، وارقوا به من العين، وعالجوا به من المرض.

واعلموا أنه كما يعالِج القرآنُ أمَّ المؤمنين فإنه يعالج أمةَ المؤمنين..

فالكثرة والقلة والأم والأمة أمام كتاب الله سواء..

فإذا جاء الحق زهق الباطل، وإذا جاء القرآن بطل السحر والمرض..

والمرض الثقيل أمام كتاب الله كالمرض الخفيف.. ليس له إلا الشفاء، ليس هذا فحسب، بل المرض المزمن المستعصي في بدن الأمة كالموت سواء بسواء، فعافية الأمة في هذا القرآن وشفاؤها من مرضها كبعثها من موتها بهذا القرآن سواء بسواء..

الحديث السادس عشر

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «يَدْرُسُ الإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ الله فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَة: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَنَحْنُ نَقُولُهَا» فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ فَقَالَ: يَا صِلَةُ تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ، ثَلَاثًا [1].

(١) صحيح: رواه ابن ماجه ٤٠٤٩، وصححه الألباني.

❁ أولًا: مفتاح الفهم المعايشة:

بعد مرحلة ثبوت القرآن وتلقِّي الصحابةِ له آيةً آيةً، ونجمًا نجمًا حتى إذا اكتمل وتمَّ، وبدأ هذا الدِّين يعلو على الأديان شيئًا فشيئًا، ويعيش الصحابة رضي الله عنهم هذه المرحلة ويرون ثمرتها وعزتها وما فيها... هنا يقلب النبي ﷺ هذه الصفحة فيذكر لهم ما لم يتصوروه أبدًا، ذلك هو زوال الإسلام عن الوجود بزوال أركانه، وذهاب ركائزه، ومحو القرآن ورفعه..

عندها بدأ حذيفة يسأل عن سبيل النجاة في مرحلة النكبة هذه وتلك المصيبة التي ليس بعدها مصيبة..

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: ثبات الأمة بالقرآن.

الشاهد: «وَلَيُسْرى على كتاب الله في ليلة...».

ثبات هذه الأمة مرهون ببقاء هذا القرآن متلواً بين أظهرهم، معمولا به فيهم، حتى إذا هُجِر وتُرِكَ رفع من الصدور والسطور حتى إذا رفعت منه آخر آية ولَمْ يبقَ من الإسلام إلا الذكرى في ذاكرة الشيخ الكبير والمرأة العجوز.

يا أهلَ القرآن: إِنَّ مَنْ يفتقد النعمة أو يُسلَبها يقدِّرُها، اللهم أعنَّا على تقدير نعمة القرآن وشكرها.

لا يرفع القرآن والعباد يقرأونه ولايهجرونه، لايرفع عنهم وهم يستحقُّونه وفيهم مَنْ يستحقه.

هكذا يرفع القرآن رفعًا كاملًا ونهائيًّا بحيث لا توجد له آيةٌ واحدةٌ تقرأ

في ورقةٍ أو سطرٍ، أَوْ لَهَا أثرٌ في ذكر أو محفوظة في صدرٍ، نعوذ بالله من ليلةٍ يُسرَى فيها على كتاب الله، نعوذ بالله من صباحٍ لا قرآن فيه، نعوذ بالله من نهارٍ ليس فيه الهدى والنور المبين.

المعنى الثاني: ذهاب الكون مرهون بذهاب القرآن.

الشاهد: «فلا يبقى في الأرض منه آية...».

هذا أوانُ انقضاءِ وقتِ التحدِّي بحفظ القرآن بين الناس في الأرض ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر: ٩).

أوان الرحيل الكبير وبعده الطَّيُّ الكبير، فطَيُّ الكتابِ أولًا وبعده طَيُّ الكونِ الأخير، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٤).

هذا كتاب الله يُرفع كما نزل، لمْ تتغيَّرْ منه سورةٌ ولا آيةٌ ولا حرفٌ، يرفعه سبحانه كما يرفع الرجل أثمن ما في بيته إذا أراد هدمه، ولله المثل الأعلى، فلا يناسب أن تقوم الساعة وتحدث الأهوال والقرآن مازال في الأرض.

❁ ثالثاً: التنادي:

يا حَمَلَةَ القرآن... أي مقام رفعكم الله إليه في هذا الحديث العظيم، فإن الكتاب الذي يكرمه الله بأن لا يزيل الدنيا ما دام باقيًا فيها سيكرم صدر رجلٍ فيه القرآن أن يصيبه التلف في الدنيا والآخرة ما دام القرآن فيه محفوظًا محافظًا عليه.. فأي كرامةٍ هذه؟

وأي كرامةٍ لرجل يمنحها له فتعم البشريةَ كلَّها حين يحفظها من الزوال ما بقي بينهم حافظ لكتاب الله تعالى.

يا حملة القرآن: أنتم أوتاد الأرض، وصمام الأمان للعالمين ما بقيتم حافظين لهذا الكتاب، وعليه محافظين.

يا حملة القرآن: إذا نكبت الدنيا كلها برفع القرآن من بينها فالنكبة لكل من ضيع القرآن بعدما حفظه في نفسه أعظم، فإن من نُسّي القرآن بعدما حفظه فقد حرم، وإن من نكب مع الناس كان عزاؤه شمول النكبة أما من نكب في نفسه فلا عزاء له..

يا حَمَلَةَ القرآن: ماذا يعني وجود نسخة من القرآن في بيت أو مكان لا وجود للقرآن في حياته، ماذا يعني رفع القرآن من دارٍ أو محكمةٍ أو وزارةٍ أو نحوها قد أصبح وجود القرآن وعدمه في منهجها سواء؟!

الحديث السابع عشر

عَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِى صُفْرَةَ قَالَ أَخْبَرَنِى مَنْ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ: إِنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُم حم لاَ يُنْصَرُونَ[1]

(١) رواه أبو داوود رقم٢٥٩٩ وفي رواية الترمذي: «١٧٨٣» إِنْ بَيَّتَكُمُ الْعَدُوُّ فَقُولُوا حم لاَ يُنْصَرُونَ -وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣٠٩٧

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

المفتاح: حم.

ليلة الخندق وما أدراك ما ليلة الخندق، جاء في السيرة وبعض طرق الحديث أنه كان حذرٌ وترقبٌ منذ أن يلف الليل الفريقين بظلامه حتى يطلع الصباح..

وما بين مغيب الشفق وطلوع الصباح محاذير مُرْتَقَبة، ومخاوف محتمَلة.. ولا يعلم الغيبَ إلا الله سبحانه..

مخاوف جعلت رسول الله ﷺ يضع لأصحابه هذا الشعار السرِّي العظيم ليتجاوبوا به إذا أغلس الليل بهم فلم يعرف بعضهم بعضًا..حم... لا ينصرون.

ليلة صبيحتها لقاء العدو!

قلوب تنتظر اللقاء الحاسم غدًا

هذا رسول الله ﷺ يربط سارية النصر بأحرف هذا القرآن.

لترتبط قلوب الحارسين المرابطين خلف الخندق بأمنيتها عن طريق القرآن، فأيُّ مربٍّ – عليه الصلاة والسلام – هذا؟

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: رقية النصر أو الشعار القاطع بالنتيجة.

الشاهد: «إنْ بَيَّتَكُمُ العدو...».

تعليق القلب بالقرآن، وربطه بموعود خطير منتظر وهو لقاء العدو في الغد.. فالرسول ﷺ يعلق القلب برقية استحالة نصر العدو علينا فيقول: «حم لا ينصرون» هذه رقية النصر، فالقرآن شعار النَّصر ورقيته.

إلا أن قَصْر ذلك السبب على هذهِ الليلة لا يجيب عن حكمة اختيار حم لا ينصرون دون غيرها..

إنه الربط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، ربط بالقرآن وأحرف القرآن..

ربط باللُّغة التي لا يفقهها إلا أهل القرآن..

ثمَّ إنَّ قولَ النبيِّ ﷺ: «إنْ بَيَّتَكُمُ العدو» أبعدُ مِن أن يكون هذا الشعار محددًا لهذه الليلة، إنه شعار نصر لمعركة وليس شعار ليلةٍ واحدةٍ..

قوله: حم إنَّها الأحرف المقطعة أو الأحرف التي ابتدأت بها وبأمثالها الكثير من السور القرآنية، ومناسبتها – والله أعلم – لهذا المقام هي: كما أن الأحرف المقطعة في أوائل السور القرآنية أعجزت الكافرين، وأظهرت هزيمتهم، حيث تحدَّاهم الله أن يأتوا بمثل هذا القرآن بإشارة هذهِ الحروف فعجزوا وهزموا، فكذلك هنا، فقد استبشر الرسول ﷺ بتحقُّق هزيمتهم في ميدان المعركة بهزيمتهم في ميدان تحدي القرآن في المعركة الأولى، وعلامتها هذان الحرفان «حم لا ينصرون»..

وكما عجزوا عندما جاهدهم بالقرآن ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ (سورة الفرقان:٥٢) فلسوف يعجزون في هذا الميدان ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (سورة التوبة:١٤) فالتَّحدي الأوَّل والتَّحدِّي الأخير هو هذا القرآن، ولأجله تتفتَّح ميادين الصِّراع ووسائله وأسلحته.

إنَّه الشَّرف الذي يستشعره مَنِ اصطفاهم الله سبحانه ليحملوا أمانة هذا القرآن ويدافعوا عنه بأرواحهم في ذاك الوقت، وفي كلِّ وقتٍ.

وهذا هو أعظم تكليفٍ وأثقل تكليفٍ، لكنَّه أشرف تكليفٍ.

فقد جُعِلَتْ حم شعار الحرب، وجعل جوابها لا ينصرون، فإذا جاء الحق زهق الباطل، وإذا جاءت حم فإنهم لا ينصرون..

المعنى الثاني: أحسِن الإعدادَ بهذا الشعار.

الشاهد: حم لا يُنصرون.

وأخيرًا قوله ﷺ: «إنْ بيَّتكم عدوُّكم» كم سيتفكر الصحابة بهاتين الكلمتين هذه الليلة؟

كم سيتفكرون بهذين الحرفين (حم) حتى يطلع الصباح ويتحقق النصر الموعود عند اللقاء؟

كم سيتفاءلون بهما، وبما أعقبهما من دعاءٍ ورجاءٍ، في قوله: «لا ينصرون»؟!

وكم ستتعلق القلوب المقبلة على الله غدًا بهذين الحرفين (حم)، حتى لو لم تقطع بفهم مَعْنَيْهِمَا؟!

وكم ينبغي أن نعلق القلوب بالقرآن وأحرفه حتى لو لم نقطع بفهم معناها وإنه لتوجه إلى الله تعالى بالقرآن العظيم في هذا الموطن العظيم...

يا أبناء القرآن: بما أنكم جربتم النصر بـ «حم» حينما جربتم الجهاد بالقرآن لمَّا استجبتم لأمره سبحانه ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ (سورة الفرقان: ٥٢) فثقوا بأن النتيجة واحدة في هذا الميدان الجهادي الجديد.. فقد كتب على أعداء هذا الكتاب أنهم «لا ينصرون»..

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهلَ القرآن: «إنكم ستلقَون العدوَّ غداً، وإن شعاركم حم لا ينصرون».

«لا ينصرون» إن قلت إنه إخبارٌ صدقتَ.. وإن قلتَ إنه دعاءٌ صدقتَ.. وإن قلت كأنه من القرآن صدقت، وإن قلت إنه من السُّنَّة صدقتَ... إن قلت إنه وعد صِدْق صدقت، وإن قلت إنه صناعة النصر في النفس أولًا، ثم تحقيقه بعد ذلك صدقت، وإن قُلْتَه كيقين قاطع ومستقبل رافع صدقت، حقيقة سيكشفها الغد «إنكم ستلقون العدو غداً»..

يا أهلَ القرآن: قبل هذه المرحلة كان الجهاد بما معكم من القرآن وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا فقد كان هو السلاح الذي تجاهدون به، وهو الغاية التي تجاهدون لتحقيقها، وها هو القرآن... الغاية التي تَذَبُّون عنها اليوم.. فهو القرآن أَوَّلًا وآخرًا..

يا أهلَ القرآن: النصر في ميدان الجهاد مبنيّ على الانتصار على هوى النفس بالقرآن الكريم...

ولولا سلامة الأساس ما ارتفع البناء.. وما بلوغكم هذه المرحلة إلا دليل انتصاركم في المرحلة الأولى، وها هو شعاركم اليوم «حم لا ينصرون».

يا أهلَ القرآن: اليوم إن تمكنتم بالقرآن وجاهدتم بالقرآن جهادًا كبيراً فثقوا بموعود رسول الله ﷺ في المرحلة الثانية، وأنهم «حم لا ينصرون».

فاليوم يوم القرآن، فخذوا حفظه والدعوة به وإليه... حياة تحركها روح الجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ (سورة الفرقان:٥٢).

الحديث الثامن عشر

عَنْ وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللهُ عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيم أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ». قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ الله: يُرِيدُ بِهِ لَيْلَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ[1].

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الحارثِ بنِ رِبْعِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ صَوْمَ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمِ الْخَمِيس؟ قَالَ: «فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ الْقُرْآنُ»[2].

---

(١) حسن: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» ٢٢٤٨، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» ١٥٧٥.

(٢) صحيح: رواه أبو داود ٢٤٢٦، وصححه الألباني رحمه الله.

❁ أولًا: مفتاح الفهم والمعايشة:

هذا الحديث يمثل مواقيت رحلات جبريل -عليه السلام- بالكتب الإلهية على أنبياء الله المكرمين،... إنها جميعًا في فترة زمنية محددة... مباركة.. مكرمة... إنه رمضان!

❁ ثانيًا: فرائد المعاني:

المعنى الأول: كرامة كتب الله عنده.

الشاهد: «أُنزلت».

لن يُقدِّر قيمةَ هذا الخبر من تصوَّر تلك الكتب كما هي في ذهنه وفي الواقع الآن أوراقاً محرَّفةً، مبدَّلةً.. أما الحقيقة هنا فإنَّ النبيَّ محمداً ﷺ يخبر عن أول نزولها يوم نزلت من الله جل جلاله.. من اللوح المحفوظ.. فيها النور، وفيها الهدى المبين.. فكلها كلام الله قبل أن يلحقها التحريف والتغيير.. مرفوعة مطهرة مكرمة، هكذا هي يوم سلِّمت للأنبياء، وبدأ الأنبياء بقراءتها على البشر، وتعليمهم إياها، وحثهم على بيان منزلتها العلية، وواجبهم بالمحافظة عليها، فإنها كلام الله تعالى الذي أرسل به رسله آنذاك.

هكذا كان الأمر في تمامه، ثم بعد ذلك بدأ النقص شيئًا فشيئًا.. وبدأ التحريف والتغيير والمحاربة وما إلى ذلك..

فالتمام كان في الابتداء عند تلك الأمم وفي تلك الكتب والرسالات، ثم يبدأ التغيير يسري عليها، ثم يزداد حتى لا يكاد يبقى منها شيءٌ.. أما رسالة الإسلام فإنها تبتدئ تامةً ولا تزال تزداد بنزول الآيات حسب ما يناسب الناس، ثم لا تزال في تصاعدٍ حتى يكون التمام الأتم، والذروة العُليا، في آخرها كما قال

تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة المائدة: ٣).

المعنى الثاني: كرامة رمضان.

الشاهد: «من شهر رمضان».

مجمع الرسالات الزمني هو شهر رمضان.. فكم كرَّم الله رمضان من بين الزمان وأشهر العام، ليكون ظرف نزول الكتب الإلهية، ولذا فإن قيمة هذا الشهر ليست خاصة بهذه الأمة، وإنما هي عامة على جميع الأمم، وإن زادت هذه الأمة بزيادة هذا القرآن وهذا الرسول ﷺ.

المعنى الثالث: الزمان والمكان والموضوع والواسطة؟!:

ابتداء نزول الكتب كان بإبراهيم، وانتهاؤه بمحمد - عليهما الصلاة والسلام - وكأنه العِقْد العظيم الذي ما أصبح عِقْدًا حتى اجتمع طرفاه، فَأَنْعِمْ به من عِقد، وأنعم بهما من طرفين!

كان نزول جبريل عليه السلام محدداً بنزول الكتب، وبحياة نبي كل أمة من الأمم، فإذا مات النبي انقطع النزول.. إلا أن له نزولًا خاصًّا على هذه الأمة في كل عام مرة، وذلك في ليلة القدر التي كانت موعد نزول القرآن أول مرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ (سورة القدر)... فالروح على الأَشْهر هو جبريل، ونزوله نزولٌ كريم، وهو تكريم عظيم تكرر، فلتهنأ أمة محمد ﷺ بنزول جبريل عليها في كل رمضان الى يوم القيامة؛ لقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (سورة القدر).

فإذا كان نزول جبريل على أيِّ رجلٍ من الناس بكتابٍ، يعني تَحَوُّلَ ذلك الرجل إلى رسول من الرسل، فأيُّ شرفٍ تحوزه أُمَّة محمد ﷺ وجبريل ينزل عليها كل عام؟ وعند كل رجلٍ منها هذا الكتاب الذي نزل به جبريل... فمنهم من حواه بين جنبيه، ومنهم من حوى بعضه...

فهي معانٍ لا يمكن عدُّ فَضْلِهَا أو حدُّ عُلُوِّها....

شهر رمضان هو شهر القرآن خاصة، وشهر جبريل كذلك، فلقد كانت مدارسة النبي – عليه الصلاة والسلام – كل عام مع جبريل ختمة طوال رمضان، ولقد كانت مدارسته في العام الأخير ختمتين.

المعنى الرابع: الإعداد لهذه الأمة.

الشاهد: «وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان».

يا أهلَ القرآن: تأملوا نزول كتب الله على مدى الزمان.. إن الذي اختُصَّ بها هو جبريل عليه السلام.. والشهر الذي اختُصَّ بالنزول هو رمضان.. وإنها جاءت موزعةً عليه وعلى أعشاره الثلاثة.

فصحف إبراهيم في أول ليالي عشرِهِ الأولى، والتوراة لسادس ليالي العشر الأولى في الثلث الأول، والإنجيل في العشرِ الثانية في الثلث الأوسط، والقرآن في العشر الأواخر في الثلث الأخير..

ألا ترى معي كيف ابتدأ النزول بأول ليلة، ثم أخذ يتصاعد على أيام رمضان المتصاعدة وكأنها سلالم العروج والتمام حتى وصل إلى ذراه في العشر الأواخر والتي خصصت لنزول القرآن..

يا أهلَ القرآن: أيُّ الناسِ مِثلُكم في الأمم؛ فمن آمنوا بالصحف من أتباع إبراهيم

عليه السلام أدركوا من الخير ما أدركوا، لكنهم لم يدركوا إلا نزول صحف إبراهيم، وأهل التوراة أدركوا صحف إبراهيم ونزول التوراة، وأهل الإنجيل أدركوا الإنجيل وما سبق، أما أهل القرآن فقد أدركوا خيرات الزمان كلها، وخيرات الكتب كلها، وخيرات رمضان كلها، من أول رمضان إلى آخره..

فكأنَّ كلَّ أمة تُهيِّئ لأمة محمد ﷺ، وكل نبي يهيئ لما بعده فيما كل الأنبياء يهيئون لهذا النبي عليهم الصلاة السلام جميعًا، وكأنَّ كلَّ الكتب تهيئ لهذا الكتاب..

إذًا، فصاحب القرآن في هذه الأمة هو ذروة الأمم وبين يديه ثمرات الكتب، وإذا قيل إن لصاحب القرآن شهراً.. فليس إلا رمضان، أليس هو شهر القرآن؟

يا أهلَ القرآن: المجتهد في رمضان لا يخيب.. والمجتهد في رمضان سواءٌ في أوله أو وسطه أو آخره مواطئ لنزول كتاب من كتب الله ومواطئ لنزول جبريل عليه السلام..

يا أهلَ القرآن: السباق في رمضان ينطلق على أَشُدِّه منذ غروب شمس آخر يوم من شعبان، فبغروبها يدخل رمضان وهي الليلة التي ابتدأ نزول الكتب فيها وكان ذلك بنزول صحف إبراهيم عليه السلام..

❁ ثالثاً: التنادي:

يا أهلَ القرآن: هذا كلام الله بين أيديكم غضاّ لمْ يَتْلُهُ تحريفٌ، ولمْ تعبثْ به يدٌ، فإياكم وتحريفَ المعاني، إياكم والشاذَّ من التفسير، إياكم أن يؤتَى القرآنُ من جهتكم، فأنتم أصحابه.

يا أهلَ القرآنِ، أنتم حَمَلَته المدافعون عنه، فلا تشابهوا أهلَ الكتاب الذين بدَّلوا كتبَهم، واشتروا بآيات ربهم ثمناً قليلاً.

والحمد لله رب العالمين ،،،

فهرس الموضوعات

مقدمة ٦
التعريف بمصطلحات الكتاب ٨
الحديث الأول ١٢
الحديث الثاني ١٩
الحديث الثالث ٢٦
الحديث الرابع ٣٠
الحديث الخامس ٣٧
الحديث السادس ٤٢
الحديث السابع ٤٨
الحديث الثامن ٥٥
الحديث التاسع ٦٠
الحديث العاشر ٦٥
الحديث الحادي عشر ٧٠
الحديث الثاني عشر ٧٦
الحديث الثالث عشر ٨٠
الحديث الرابع عشر ٨٥
الحديث الخامس عشر ٩٠
الحديث السادس عشر ٩٦
الحديث السابع عشر ١٠٠
الحديث الثامن عشر ١٠٥

مؤسسة سلسبيل الوقفية

سلسبيل

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

69600444

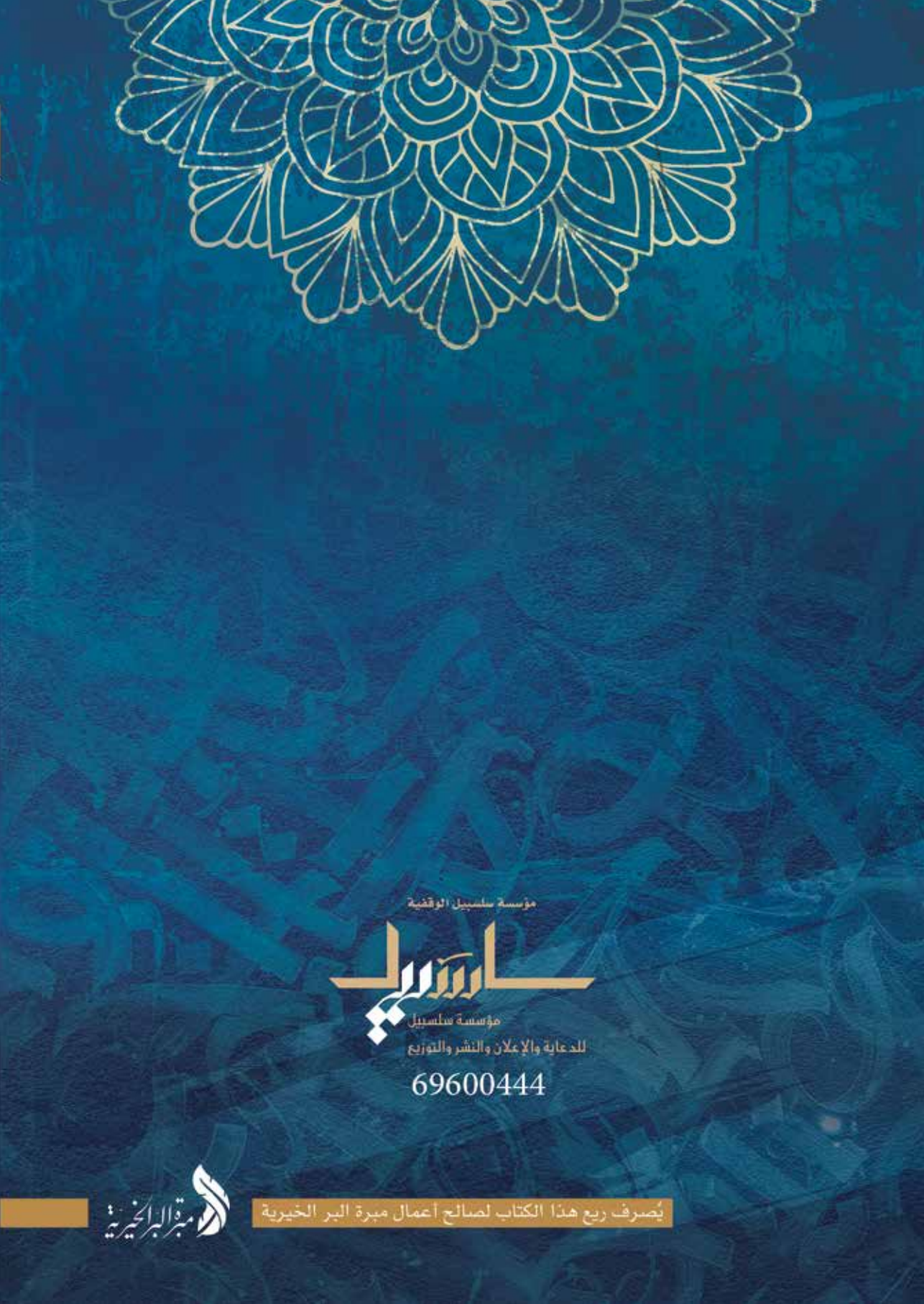

يُصرف ريع هذا الكتاب لصالح أعمال مبرة البر الخيرية

مبرة البر الخيرية